يوم بكى الشيطان

قصص قصيرة

نورالدين الهاشمي

صراخ

كنّا سرب أطفال نتقافز فوق بساط الربيع.. لا تشكو الأزهار عزف أقدامنا الصغيرة.. فجأة لمحنا فرخ حسون يلثغ بين الأعشاب.. فعدونا خلفه نزقزق ويزقزق.. ما نكاد نلامسه حتى يطير علو قاماتنا الصغيرة.. وركضنا.. فطوينا سهل الزهر وجسر النهر وأرض الصخر وحين دخلنا صحراء الرمل أضعناه.. بحثنا عنه بشوق.. ناديناه وجدناه أسير الشوك وثمّة أفعى رقطاء تتسلّل فاغرة فاها نحوه.. فصرخنا .. وصرخنا .. وصرخنا .

تمضي أيام العمر بنا نحو ضفاف الموت.. مازلنا نصرخ بالأفعى الرقطاء ونتجاهل أنّ الأفعى صماء .

يوم بكى الشيطان

خمسون عاماً أمضاها عبد الله على خازوق القرن العشرين، ثم انتقل في ليلة واحدة إلى خازوق القرن الحادي والعشرين. ولكنّه لم ير طوال حياته التي أمضاها وما زال يمضيها متخوزقا أعجب مما رآه تلك الليلة.. صحيح أنّه رأى من قبل كثيراً من البشر يبكون بصمت وعويل لفقد المال والأهل والولد والصديق ونسمة الحرية كما رأى آخرين يبكون لأسباب غريبة. فقد شاهد مرّة مسؤولا كان كبيرا يبكي لأنهم غدروا به ونسلوا من تحته الكرسيّ الذي تبارك بمؤخرته عشرين عاما، ورأى امرأة ذات فرو ثمين تمتلئ عيناها وعينا كلبها بالدموع لأنها لم تستطع الحجز في فندق ذي خمسة نجوم ليلة رأس السنة. كما شاهد فتى ذا خاتم وسلسال وخلخال يبكي بحرقة ويهدّد بالانتحار لأنّ والده لم يشتر له كلباً صينياً بل اشترى له كلبا من نوع (دوبرمان). وشاهد شاعراً يندب ويهجو العالم لأنّ قصيدته لم تحرك أريحية ممدوحيه بمنصب أو مال أو حتى بمائدة عشاء. ورأى بأمّ عينه موظفاً يبكي لأنّ رئيسه في الدائرة قد رفع نسبة حصّته من الرشوة.. كلُّ هذا بدا لعبد الله عادياً أمام مشهد المخلوق الذي رآه يبكي هذا اليوم.. حدث هذا في تلك الليلة التي تآمرت فيها قدماه وعقله وساقاه إلى حديقة غنّاء تقع في أحضان أرقى أحياء المدينة وبعد أن جلس يتأمل الماء والخضرة والوجه الحسن وتداعبه نسيمات ناعسة صحا على صوت الحارس الخشن يأمره بارتياب أن يغادر الحديقة فقد حان موعد إغلاقها.. ولم يشأ أن يعكّر مزاجه بالرجوع إلى حارته الغارقة بالفقر والقمامة والطين والأولاد، فسار في الشوارع النظيفة يغمره إحساس بالغربة.. فجأة صفعت عينيه شعشعة أنوار تغمر قصراً رخامياً تتوافد إليه عشرات السيارات الفخمة وتصدح في أرجائه موسيقا النصر، فكمن خلف إحدى الأشجار اليابسة يمتّع بصره بالنظر إلى المسؤولين والرخام والصدور العارية والأفخاذ والأنوار والسيارات. فجأة شعر برائحة نفّاذة قريبة تخترق أنفه كرائحة مومس مضمّخة بأفخم العطور،

التفت خلفه فصعقه منظر الشيطان الذي تعرفونه بقرونه ووجهه الثعلبي وشعره وذنبه الطويل:

_ لا تهرب مني أرجوك!

جأر الشيطان متوسّلاً والدموع تنساب من عينيه.

_ ألست الشيطان؟

_ بلى أنا الذي تلعنونه كلّ دقيقة.

_ وما الذي يبكيك؟

_ سأحكي لك كلّ شيء.. أتعرف أولاً صاحب هذا القصر المنيف؟

_ كلا..

_ لا بأس.. اسمه الآن عفيف بك.. تعرّفت عليه منذ عشرين عاماً في أحد الأحياء الطفيلية التي تلتصق بالمدينة كما يلتصق القُراد بجلد الغنمة العجفاء.. كانوا ينادونه عفيف الخفيف.. توسّمت فيه النباهة الإبليسية التي أشتهيها فقد كان يمارس جميع الأعمال التي تسعدني. سرقة.. خطف.. نشل.. نصب.. احتيال.. ولكنها كانت أعمالاً صبيانية سخيفة لا تروي مطامحي.. وانتظرته في أحد الأيام أمام باب السجن الذي استضافه ستة أشهر عقابا له على سرقة سجادة من أحد المساجد.. لحقت به ووسوست له: "دعك من هذه الأعمال الصبيانية يا عفيف واسمعني جيدا ". وحين رأيته مصغياً تابعت أهمس له كالعاشق الولهان: "إذا أردت أن تصل إلى ما تريد فعليك أن تفعل ما أريد". فسألني بشوق: "وماذا تريد الآن أن أفعل؟" فأجبته: "ابدأ بتجارة الدخان المهرّب" .وعاد ليسألني بغباء: "ومن أين لي بالمال؟".فضحكت ساخراً من قلّة حيلته: "يا غبي.. إسوارة أختك المتزوجة جاهزة وأنت تعرف مكانها أثناء حمّامها أو ذهابها إلى عملها..!". وسرعان ما راقت له الفكرة، وفي المساء كان ثمن الإسوارة في جيبه ولا يعنيني طلاق أخته الذي حصل بل سأكمل لك قصة صاحب هذا القصر حتى تعرف مقدار ما جلبه لي أخيراً من قهر.. فمن هذا المال الذي تسمّونه أنتم حراماً انطلق. كانت البداية بضع كروزات.. إلى صندوق فصناديق إلى شاحنة صغيرة فقاطرة ومقطورة. ولما ضاقت خزانته بالمال نصحته بصدق إبليسي وقلت: "يا عفيف عليك أن تطّور الحال إلى تجارة أرفع وربحها أسرع ففهمها على الطاير وانغمس في التجارة التي تسمّونها ممنوعات يجلب ما خفّ وزنه وغلا ثمنه". وحين قرأ صدفة في إحدى الصحف المغرضة المفترية أنّ أحد الشبان المدمنين قد مات واتهّموا زوراً بقتله تجّار المخدرات.. أسرعت أهمس له: "لا يقلقك هذا الادعاء فهو افتراء وعليهم أن يشكروك لأنّ ما تهديه إليهم ينسيهم الهموم ويحملهم إلى عالم الأحلام والنجوم ولا يموت أحد إلاّ في يومه وهذا مقدر له.. ولستَ الوحيد الذي يجلب هذه المخدرات". فارتاح لهذا التفسير ونسي بعدها تماما شيئا تسمّونه بغباء الضمير، وأعجبتني جدا مبادرته حين قرن تجارة المخدرات بتجارة

العملة الصعبة فصار يشفط اليورو والين والدولار ويعيدها إلى بلادها بكّل أمان، وبعد أن فاض عنده المال وصار لديه أرصدة وشيكات وبطاقات اعتماد وأسهم وسندات.. همست في أذنه: "يا عفيف". فصرخ في وجهي لأول مرة مهّددا: "عفيف بك إذا سمحت!" فاعتذرت له مسرورا عن قلة الأدب وقد تملكني الطرب وتابعت: "آن لك يا عفيف أن تغسل أموالك كما يقول هؤلاء المتشدّقون وأن تقوم بأعمال شريفة كما يزعمون". فسألني: "ما رأيك في مكتب استيراد وتصدير؟!" فأجبته دون تفكير: "هذا نعم الرأي والتدبير". وانقلب عفيف إلى تاجر دولي يُحسب له ألف حساب وينتقل كالذباب النشيط بين ماليزيا والصين وكوريا و تايوان.. ويجلب للوطن أحسن النفايات. فتركته عدة سنوات بعد أن اطمأننت إلى عمله بما يرضيني. ولكن حين زرته في إحدى المرات لمحتُ نار الحسد في عينيه ولما سألته عن السبب قال: "أيعجبك أن يزاحم سيارتي موكب مسؤول تتقدمه الموتيسكلات وتلحق به السيارات ويلوّح له الرجال والأطفال والسيدات وهو لا يملك عُشرَ ما أملكه ويتمّنى رضائي ولا يدرك". فطيّبت خاطره وقلت له: "معك حق فقد آن الأوان كي تحمي مالك بالمنصب والسلطان وما دمت تملك هذا المال فأنت واصل لا محال". فشكرني على هذه النصيحة وضّمني ضّم عشيقة. ورشّح نفسه في البداية لمجلس الأعيان وأرشدته كيف يخدع قطيع الجماهير فيبدو مدافعاً عن المظلومين... مهرولاً من أجل الملهوفين... لاطماً خّديه من أجل العاطلين... ممزقا ثيابه من أجل المشردين... متبرعاً من أجل المساكين... داعياً من أجل نصرة الدين.. فاقداً وعيه لأخبار فلسطين.. فتّمت الانتخابات والتهم أعلى الأصوات.. وهاهو الآن كما ترى يحتفل في قصره بهذا النصر المبين.

صمت الشيطان ودموعه تسيل مدرارا من عينيه الماكرتين ويرتجف ذيله المعقوف ألما وغضباً. فاستجمع عبد الله بعضَ الشجاعة وقال مواسياً:

_ أنت مخطئ يا حضرة الشيطان.. كان الأجدى بك الآن أن تفرح بنجاح مُريدك ولا تحزن.

وهنا لطم الشيطان وجهه وشدّ قرنيه وصرخ:

_ افرح..!!.. ألا ترى ما كتبه هذا الناكر على بوابة القصر؟!.. انظر ماذا كتب.. (هذا من فضل ربي).

ثم أجهش الشيطان بالبكاء وتبعه عبد الله باللطم والعواء.

حوارية السيد والعبد

-خطواتك صارت ملتوية يا مطيع.. احذر أن تتعثر فتحطم صحن الكريستال وتفسد بالطعام السجادة الكاشانية.
-أنا آسف يا سيدي .. أقسم لكم بأن ساقيَّ قد انحنيا في خدمتكم.
-اسكب يا مطيع ..
-حاضر سيدي.
-يداك ترتعشان يا مطيع.. احذر أن تلوث بالطعام غطاء الطاولة.
-يرتعش كل مخلوق أمام هيبتكم سيدي.
-لقد ناديتك مرتين عند استيقاظي ألم تسمعني ؟
-كنت في المطبخ أشعل الموقد يا سيدي .
-لا.. لا لقد أصبح سمعك ضعيفا يا مطيع .
نعم يا سيدي فقد فني في الإصغاء إلى أوامركم.
-وجهك شاحب كوجوه الموتى يا مطيع.
شحب وجهي من شدة الخوف عليكم يا سيدي..
أزعجتني البارحة بسعالك طوال الليل .
-معك حق يا سيدي فقد ضاق صدري ليوفر لكم المزيد من الهواء النقي..
-هيا خذ بقايا الطعام وانصرف.. انتظر.. يمكنك أن تأكلها..
-شكرا يا سيدي..
-توقف..!
-ما الأمر يا سيدي؟

-انحناؤك لم يعد يرضيني أبدا يا مطيع..
-ليتني أستطيع الانحناء اكثر ولكن ظهري قد تيبس من طول الانحناء لكم يا سيدي.
-صرت في الرابعة والسبعين يا مطيع.
-بل في الخامسة والسبعين يا سيدي.
-كيف ذلك؟
-نذرني أهلي لخدمتكم منذ علقت ببطن أمي يا سيدي.
-انصرف.
-حاضر يا سيدي.
-توقف.. لا تحضر لي طعاما بعد الان.
-لماذا يا سيدي..؟
-لقد أهدي إلينا خادم صغير.. قل لنا مبروك.
-مبروك يا سيدي.
في صباح اليوم التالي همس الخادم الصغير بأذن سيده يخبره بأنهم وجدوا مطيع جثة باردة.. فسأل السيد وهو يرتشف قهوته الصباحية.
-أكانت علامات الرضا والقبول مرتسمة على وجهه أم علائم الغضب والحزن..؟
-علائم الغضب والحزن يا سيدي.
-اللعنة علة هؤلاء الفقراء ما أقل وفاءهم.

السير بأدب

معرض السيارات يعش العقول بوهجه ويصعّد إلى الحلق غصصا من نار. أوقف الأستاذان المتقاعدان حديثهما عن المعاش والأمراض والزملاء الذين يتسلى بهم المرض والموت ثم استندا إلى عكازيهما يرنوان مع حشد من المشدوهين إلى السيارات المتلألئة.. صاح قربهما متفرج مشدوه مفاخرا رفاقه:

-لا تناقشوا .. سيارات أمريكا هي الأفخم ..!

-بل أوربا هي الأعرق..!

-اليابان هي الأكثر أناقة..!

-الشرقية هي الأسوأ..!

-أنا لا أشتري سيارة شرقية بألف ليرة..!

-ولكنك لا تملك ألف ليرة..!!

ضج المشدوهون بضحك صاخب شامت حتى دمعت عيونهم..

أسند الأستاذ الأول جسده نصف المشلول إلى رجله اليسرى ثم أشار بعكازه إلى اسم صاحب المعرض " بسام الشاطر " .. وسأل زميله الذي لمع الألم في ركبته اليسرى:

-أتذكر هذا الاسم؟!

-كلانا اشترك في التصويت على طرده من المدرسة.

-كان هذا أخف عقوبة لمن يسطو على خزانة أسئلة الامتحان.

-ولكن كيف حصل على هذه الثروة الخرافية؟!

أسند الأستاذ الأول جسده نصف المشلول إلى رجله اليمنى وأشار إلى حكمة علّقها " بسام الشاطر " على الجدار فوق أفخم سيارة في معرضه :

[ملكُ الملوك إذا وهبْ لا تسألنَّ عن السببْ
فالله يعطي مَنْ يشاء فقفْ على حد الأدبْ]

صمت الأستاذان وراحا يجرجران جسديهما على الرصيف بأدب.

في الرأس شيء مفقود

إنذار مستعجل..!

إلى جميع أهالي تل الغراب.. تعلن بلدية المدينة عن تحويل مقبرة تل الغراب القديمة إلى مدينة ملاه وألعاب.. فعلى جميع أقارب الموتى نقلُ رفات موتاهم إلى مقبرة (تل المرتاح) الجديدة خلال مدة أقصاها شهر واحد من تاريخ هذا الإنذار.. ومن يخالف يتعرض للغرامة والمساءلة في الدنيا ويقع عليه إثم ميته إلى يوم القيامة.

التوقيع رئيس البلدية

لم يصدّق أهالي تل الغراب إنذار البلدية فأوامرها كما يقولون تبدأ حامية كالعادة ثم تبرد شيئا فشيئا وتنام في الأدراج وتحت أباريق الشاي وجوزات المتة ، وأخيرا تغدو تسلية لجرذان مستودع الأرشيف وفئرانه.

قال أبو فهيم الحلاق وهو يطقطق بالمقص (عا الفاضي) فوق راس أبي حامد الأصلع الذي مازال زبونا شهريا رغم اختفاء معظم شعره تحت عوامل الحت كما يزعم متحّسرا

-لا تصدقهم يا أبا حامد وضع رجليك في سطل ماء مثلج.. فدكاني غير مرخص منذ ربع قرن وقد أنذروني مائة مرة.. وها أنا أعمل فيه كما ترى.

وقال أبو حمزة خدّام الجامع:

-يا جماعة.. نقل الموتى حرام.. حرام.. وهو من علامات يوم القيامة.

وقال أبو راتب الذي يعمل صيّاحا على باب المحكمة الشرعية:

-أرض المقبرة ملك لأوقاف المسلمين ولن تجرؤ البلدية على طرد ميت واحد.

ولكن يبدو أن البلدية جادة هذه المرة –لأمر ما في نفس يعقوب- فقد فوجئ أهل المدينة برتل من التركسات والشاحنات المحملة بالعمال المدججين

بالفؤوس والرفوش والمعاول وحاصرت المقبرة حصار محكما ثم انطلقت الإنذارات الأخيرة من مكبرات الصوت والتلفاز والإذاعة بضرورة نقل الموتى من قبل الأهالي خلال أربع وعشرين ساعة وإلا..

انطلقت الجموع إلى المقبرة تحفر وتنبش وتلمّ رفات الأموات وتنقلها على وجه السرعة إلى مقبرة (تل المرتاح) .. وعند نهاية الإنذار كان جميع الموتى قد انتقلوا بأمان وسلام ما عدا ثلاثة موتى تعود ملكيتهم إلى أبو فهيم الحلاق وأبو حمزة خدام الجامع وأبو راتب صيّاح المحكمة.. فقد رفض هؤلاء بإباء وعناد نقل رفات موتاهم.

صاح أبو فهيم وهو يحصد على الصفر شعر سليم التيس:

-آخ.. آخ.. أين حرمة الأموات يا مسلمين.. أين؟!

وصرخ أبو حمزة وهو يخاطب زبائن المقهى الغارقين بدخان النراجيل.

-ولك اليهود ما عملوها..!

وصاح أبو راتب صياح المحكمة والزبد يدلق من شدقه:

-عظام أمي لن تمتّد إليها يد غريب وأنا على قيد الحياة.. ولك يا عالم هاي حرمة.. حرمة..

ولكنّ أيدي عمال البلدية الآثمة امتدت بوقاحة إلى القبور الثلاثة..واستخرجت عظام هؤلاء الأموات الخارجين عن القانون ، ثم وضعت عظام كلّ ميت في كيس مع الاسم والعنوان والهاتف.. ورصفت الأكياس بانتظام عند طرف المقبرة.. ومع ذلك فقد رفض الثلاثة بعناد استلام الأكياس ودفن ما فيها.. وبقي الموتى في العراء ليلتين كاملتين.. وفي صباح الليلة الثالثة تناقل أهل المدينة بذعر نبأ يقول بأن لصا آثما لا ضمير له قد سرق أكياس البلدية وألقى العظام فوق بعضها بعضا . فطار أبو راتب إلى المقبرة لتخليص أمه من بين أيدي الذكرين الميتين ولحق به أبو فهيم وأبو حمزة وبدؤوا يتخاطفون العظام.. وبالفعل فاز كل منهم بهيكل كامل ما عدا فخذ الساق اليمنى فقد كان النقص عاما وحاول كل منهما أن يسطو على ساق الآخر.. لكن دفاع كلّ منهم المستميت حال دون ذلك.. وحين أخبرهم الأبله (سعيد قرقور) سرّاق الآس من فوق القبور .. بأنه رأى عظم فخذ عند السور الشمالي.. طار الثلاثة كالشواهين يتسابقون إلى هناك.. وما كاد أحدهم يصل إليه حتى وثب عليه الثاني كما انقضّ الثالث بحماسة على الاثنين فتضاربوا وتنازعوا وتصايحوا وتشاتموا وتناهشوا واشترك العظم في المعركة وكان سلاحا فعالا أدمى الرؤوس والظهور والمؤخرات . ولولا قدوم رجال الشرطة بسرعة لفازت المقبرة بقبر جديد وربما أكثر.

في المخفر

لم تكن المشاكل تنقص العقيد سمير حين أحضروا إلى مخفره المتخاصمين الثلاثة مع العظم مسبّب الشجار.. فقد تلقى خلال ساعة فقط من

مناوبته شكاوى عن سرقة سبعة بيوت وخمسة مخازن ومسجد وكنيسة ودائرة رسمية وعشر دراجات وعربدة سكيرين ونشل جزدان ومشاجرة جماعية.. حتى صار العقيد موقنا تماما بأن اللصوص والمجرمين لا ينطلقون كالزنابير المجنونة إلا يوم مناوبته.

نظر العقيد بملل إلى سحن متشاجري العظمة وتأمل بخوف غامض العظم الشاحب المدد أمامه على المكتب.. ثم سأل:

-لمن هذا العظم؟

-لوالدي يا سيدي فقد كان طويلا.. انظر.

-لا تصدقه يا سيدي فأبوه كان قزما قصيراً ويلقبونه (الزُّمك).

-كلا.. لا تصدقهم يا سيادة العقيد.. فالعظم لوالدتي رحمها الله.

-وما الذي جاء بساق والدتك إلى طرف المقبرة؟

-يبدو أنها ذهبت مشوارا غراميا مع أحد الأموات يا سيدي.

قالها أبو فهيم وهو يقهقه.

هنا شبت نار المعركة من جديد فوثب أبو راتب المطعون بشرفه كالفهد الجائع نحو عنق أبي فهيم الحلاق يريد قضم جوزة حلقه وشرب دمه ولولا صراخ رئيس المخفر وبسالة رجاله وضربات عصيهم الموجعة لكان أبو فهيم في عداد الأموات.. استعاد المخفر هدوءه واستردّ العقيد بعضا من تفكيره الذي تشظى تماما هذا النهار .

صرخ مهدّدا:

-اقسم بأني سأرمي هذا العظم للكلاب الضالّة إذا تشاجرتم ثانية..ثم أشار لرجاله فساقوا المتخاصمين الثلاثة إلى السجن من جديد.

قلّب العقيد العظم بين يديه حائرا.. سأل الشرطيُ كاتبُ المحضر:

-كيف أنهى الضبط يا سيدي؟

-اكتب.. اقترح على الجهات العليا تشكيل لجنة علمية لمعرفة صاحب العظم.

تقرير اللجنة

بعد التحليل المخبري والفيزيائي والكيميائي والميكانيكي وفحوص الـ D N H ثبت لدينا بما لا يقبل مجالا للشك أن العظم يخص حمارا في الحادية عشرة من العمر وقد فطس اثر دهسه بسيارة حكومية خلال عبوره الطريق وهو شارد وتركته دون إسعاف.

يرجى اخذ العلم.

نهاية الحكاية

أفرج العقيد سمير عن متخاصمي العظمة.. وقبل مغادرتهم المخفر سأله أحدهم:

-أعرفتم سيادة العقيد مَنْ يستحق منا الآن هذه الساق؟

-الحقيقية أنكم تستحقونها جميعا، والمشكلة أنه ليس لدي سوى ساق حمار واحدة..!!

حلم كبير

لماذا لم تحضر لوداعي يا خالي ؟ سأسافر للدراسة غداً، أو بعد غد، وسوف أغيب عن الوطن سنوات وسنوات..

-أعذرني يا كمال فأنا مشغول بأمر هامّ وخطير.. فغداً سألقي خطبةً نارية لاهبة في احتفال يكتظّ بالجماهير للتنديد بوعد لفور وسلخ اللواء السليب .. حظّك يغلق الصخر.. سأسمعك نتفاً من هذا الخطاب ..

قفز خالي إلى طاولة قريبة خبطها برجله مطمئنا إلى قوتها ثم تمايل زهوراً وصرخ فارتجفت الجدران وهربت القطة وأغلقت امرأة خالي علينا جميع الأبواب..

(أيتها الجماهير يا أحفاد قحطان وعدنان لا ملاذ لنا مما يعصف بنا ويهدّدنا إلا وحدة كبرى تضّم شملنا وترفع رأسنا وتصون أرضنا من الطامعين.. ولا كرامة لنا أو حرية إلا بعدالة اجتماعية ومساواة واشتراكية..)

تابع خالي خطبته.. شردتُ قليلا فتوقف واتهّمني غاضباً بقلّة الصبر والضعف وبأنني إذا بقيت على هذه الحال فسوف أغدو ذنبا من أذناب الرجعية أو بوق للإمبريالية.. ثم تصالحنا فأمطرني بقبلات الوداع وأوصاني أن أكون سفيرا عربيا مخلصا في بلاد الفرنجة.

استقبال

لماذا لم تأت لاستقبالي يا خالي؟! جاء الجميع إلا أنت.

لا تلمني يا ابن أختي فأنا منهمك بكتابة مقالة عصماء كُلّفتُ بها لصحيفة عربية سوف تهزّ ضمائر القراء.. وسمّيتُها صرخة عربية.

- لكنّي في إجازة وسوف أسافر بعد أيام يا خالي..

-أعرف أعرف.. لا تكثر من الكلام وتعال دون إبطاء، لكي تحظى بقراءة هذه المقالة قبل أن تُفاجئ القراء.

حين شاهدتُ خالي بعد تلك السنوات فوجئتُ ببياض شعره وذوبان جسده.. وبعد أن ضمّني إلى عظام صدره وقلبه اللاهث ..

أمسك الورقة بحماس مازال مشتعلا في روحه وقرأ بصوت مشروخ..

(يا أبناء أمتي.. إذا لم يكن في استطاعتكم اليوم تحقيق الوحدة فليكن الأمر اتحادا .. أو تجمّعا.. أو سوقا.. أو اجتماعيا .. فطريق الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة.. ولا يكلّف الله أمة كأمتنا إلا وسعها.

- لقد نجحت يا خالي وصرتُ طبيبا.. ولكنك لم تأت لتهنئتي.

- أعذرني يا بن أختي.. ألم تسمع حقا ما جرى؟ لقد تشاجرت عشيرة (أبو تيس) مع عشيرة أبو تيسين (عشيرتنا) من أجل قطعة مرعى.. سبعة قتلى وأحد عشر جريحا من الطرفين.. والطامّة الكبرى أنّ قتلى عشيرتنا أكثرُ من قتلاهم.. وقد عقدنا مجلسا للصلح عند مختار (العصفورية) المحايد.. وألقيتُ خطبة تهز قلب الحجر الأسود.

(يا إخوتي ويا أبناء عمومتي.. هل نسيتُم أنكم من جذر واحد فعلام الخلاف ..؟ علام الخصام..؟ أمن أجل قطعة أرض بور ترعى بها البعران والشياه والماعز.. يا للعار لقد هاجمتم بعضكم كذئاب مسعورة (أين كنتم يوم اغتصب الأعداء بلادكم ؟!) عفواً.. هذه الجملة لم أقلها يا خالي فقد طلب مني المختار الجبان أن أحذفها .. فحذفتها مرغما..

ثم أكمل خالي:

-عشيرتانا يجب أن تتصالحا فأعداء الأرض يتربّصون بنا. وأقصد بالأعداء حتى لا يُفهمَ كلامي على محمل آخر الجفاف... الأسمدة المغشوشة... الحشرات الزاحفة والطائرة... فئران الحقل... الجراد..

-وهل استطعت رأب الصدع يا خالي؟

-مستحيل.. فعشيرة أبو تيسين (عشيرتنا) لن تصالح إلا إذا أخذت بالثأر وتساوت كفة القتلى.

-سأسافر يا خالي .. وداع.

-إلى أين؟!

-إلى بلاد لا تضيق بي ولا أضيق بها.

-ألن تأتي لوداعي؟.. سيأتي الجميع هذا المساء.

-سأحاول يا خالي فأنا مشغول جدا هذا المساء باجتماع هام للجنة الحي وسوف نبحث معا مسائل معقدة تتعلّق برمي القمامة وشطف الأدراج وسوء الخبز وانسداد الكهريز وسرقة الكهرباء .. ولعب الأطفال في الشوارع.. أتصدق يا كمال بأن الاجتماع قد تأجل عشر مرات بسبب الخلاف الحاد حول جدول الأعمال؟.. أعرني أذنيك خمس دقائق وسوف أُسمعك الخطاب التاريخي الذي سألقيه في افتتاح الجلسة.. (يا أبناء حارتي الأكارم.. علام الخلاف؟..

علام الخصام..؟ أمن أجل كيس قمامة هوى من شرفة شاهقة قذفه في الظلام كسول أم من أجل كشّاش حمام جهول تعيس... يرمينا بالحجارة كأننا إبليس.

الوداع الأخير

خالي ممدّد على السرير الآن أمامي جسده الضاوي لا يكاد يبين تحت الشرشف الأبيض... في مشفى عام واسع واسع لا سقف له ولا جدران... يغصّ بأسرة المرضى حتى غياب البلاد الجسد مشلول فقد تعب الرأس ويئست الأعصاب من حمل الأوامر دون جدوى وتشقّقت الحنجرة بعد أن يبست الكلمات..

فتح خالي بمشقة عينيه.. رنا إلي متوسّلا .

سألته وأنا اغلب دموعي:

-أتريد شيئا يا خالي..؟

تلجلج لسانه.. وجالت دمعتا قهر في عينيه..

-لا أريد الان شيئا سوى أن يصالحني هذا الجسد.. أتظّن أنه حلم كبير يا خالي..؟!

حصار

صرخ السلطان مسمار التابوت وهو يشتعل من الغيظ في جموع الفقراء اللئام الذين دعاهم إلى مائدة إحسانه :

كيف تمدّون أيديكم النتنة أيها الرعاع قبلي إلى طعامي .؟!

انحنت الرؤوس وتحجّرت اللقم في حلوق الفقراء.

همس فقير يائس مقامرا برأسه:

-تأخّرتم يا مولانا كثيرا .. فعضّت أفعى الجوع بطوننا الخاوية و خانتنا أيدينا فامتدت -شلّها الله- إلى طعامكم.

-يا جلاد!

- أنا .. في خدمتكم يا مولاي.. وسيفي ظامئ أبداً..

-اقطع الأيدي التي امتدت بوقاحة إلى طعامي.

وفي لمح البصر طارت الأكفّ النحيلة الملوثة بطعام السلطان . وقبل أن تجف دماء الفقراء ويهدأ اختلاج الأصابع صدر أمر سلطاني يقول:

(يمنع أفراد رعيتي من تناول أية لقمة قبل أنْ آمر بذلك)

ومنذ أن قطع السلطان الأيدي الآثمة مازال الفقراء ينتظرون أمر السلطان ليسمح لهم بالطعام والسلطان كما قالوا مشغول.. مشغول..

حصار

-كيف بدأت الصلاة قبل قدومي أيها الأمام الفاسق؟

-لقد تأخّرتم يا مولانا وكدنا أن ندخل بصلاة أخرى.

-عليك لعنتي أيها المارق.. ألم يبلغْك بعدُ أنّ أية صلاة لا تقبل أبدا دون وجودي المبارك؟!

-معذرة مولانا.

-سبق السيف المعذرة.. يا جلاد.

-سيفي رهن إشارتكم.

-اقطع راس هذا الزنديق الذي أقام صلاة باطلة دوني.

ومنذ أن قُطع رأسُ الأمام الزنديق مازال المصلون يجلسون في المساجد منتظرين قدوم السلطان. والسلطان كما قالوا مشغول.. مشغول..

في انتظار الطبيب

ها أنا في غرفة الانتظار الواسعة.. كيف أُلقيتُ فيها لا أدري.. من أيّ باب دخلتُ لا أدري.. معي حشد من كائنات ينتظرون الطبيب كما أنتظر.. ثمّة مَنْ هو صاحٍ تحرمه الآلام الممضّة الراحة أو اختلاس غفوة صغيرة فيطلق بين الحين والآخر زفرة تسوط الهواء.. وثمّة مَنْ هو مستلقٍ على الأرض أو ممدّدٌ في الزوايا.. لا تدري إن كان حيا أو ينتظر موته باستسلام وسلام. جلست على كرسي فارغ كان يجلس عليه قبلي ذاك المريض الذي يختلج أمامي ، يتصالب جسده مع جثّة يابسة منذ قرون.. ممرضةٌ عجوز تُحرس باب غرفة الطبيب ينسدل شعرها الرمادي على كتفيها وتقلب بأصابعها اليابسةِ رزنامة تعيد تقليب أوراقها الشاحبة كلما نفدت. على الجدران عُلّقتْ ساعة دون عقارب.. جلست انتظر مع الكائنات حولي زمنا لا أدريه.. يوما.. شهرا.. سنة.. قرونا.. لا أدري فلا شمس هنا ولا أقمار ولا نجوم.. ولا نوافذ ولا أبواب.. والهواء الذي نتنفسه قد اجترّه قبلنا الأموات ملايين المرات.. الضوء الشاحب يأتينا من مصباح يتدلى مكفّنا بالغبار ونسيج العناكب.. الزمنُ مُستنقع هنا لا يحركه سوى سقوط أحد المرضى وارتطام رأسه الذاوي بالأرض.. أو زفرة من هنا وآهة خافتة من هناك.. فجأة انطلق صوت بعد دهور ودهور لا أدري من أي جاء؟

-مَنْ سيدخل أولا إذا جاء الطبيب..؟!!

أرهفت الممرضة السمع قليلا ثم تابعت تقليب أوراق الرزنامة وكأنّ السؤال لا يعنيها.

ساد الصمت قليلا ثم علا صوت مشبع بالرجاء.

-أرجوكم.. دعوني أدخل أولا.. كان لي ولدان .. خطف الموت أكبرهم حين هوى من أعالي قصر كان يثبّتُ في أعلاه لوحة محفورة بالخطّ الكوفي تقول (الملك .. لله) انزلقت إحدى قدميه اليسرى .. اليمنى .. لا فرق.. فهوى على الأرض كومة من لحم وعظم .. ومات الثاني وأداً حين طمره تراب المجرور الذي كان يحفره فقضى مع ثلاثة في سبيل توسيع كهريز حيّ الأكابر الذي اختنق بالنفايات . لم يبق من ذريتي سوى صبي مراهق يريد كل شيء يراه خلف زجاج المحلات أو تغريه به شاشات الإعلانات أو التلفاز.. وأنا لا أملك سوى عربة أدفعها في أسواق المدينة وحاراتها.. تجلدني الشمس يصفعني البرد والريح ويلاحقني رجالٌ استمرؤوا أكل المال الحرام.. رأسي خشبة هرمة تنخرها الهموم وظهري عمود لهب يومض ألما لا يطاق.. أنا خائف.. حفيدي يهزأ من فقري وقلّة حيلتي يهدّدني بالانتحار.. بالهجر .. بانتزاع مفتاح البيت.. يريد كلّ شيء وأنا لا أملك شيئا. وغرق البائع الجوال في خمر آلامه..

لم نهنأ كثيرا بالصمت إذ سرعان ما ارتفع صوت مشروخ لامرأة..

-أرجوكم .. دعوني أكن أول الداخلين.. جسدي مرهق بالأدواء لقد بعته زمنا حين كان هناك من يشتريه .. لا تلوموني.. جدران الفضيلة هشّة على مَنْ أنهكه الفقر.. وحين أشاح الرجال الفحول وجوههم عي جسدي لجأت إلى أعمال شريفة كما يقولون.. غسلت ثيابُ الناس.. نظّفتْ بيوتهم.. صحونهم.. قدورهم.. ثيابهم.. أدراجهم.. مؤخرات أطفالهم عجائزهم.. شقّق الصابون جلدي وغرزت الإهانات مسامير الذل في قلبي وتورمت مفاصلي تشعّ ألما لا يطاق .. واختنق صوت المرأة في نشيج مكتوم.

-لا.. لا أنا لست مريضة (كان الصوت الآن لامرأة أيضا..).

-انظروا.. مازلت أستطيع السير .. الأكل.. الوقوف.. الكلام.. سأتوسل إلى الطبيب كي يفحصَ زوجي. إنه أمامكم دون حراك . وهو الذي كان ينقل الناس بسيارته إلى كلّ البلاد وحين قالوا ببرود في أحد أيام.. زوجك مصاب بالسرطان.. استسلمتُ وبكيت بحرقة أيامي القادمة.. طلبتُ منه أن يترك التدخين فصرخ بي هازئا (لماذا تريدينني أن أعيش يا امرأة؟!) أمضيتُ عمري أحمل الناس في سيارتي.. يتأمّلون براحة وهناء ما حولهم ولا أرى أمامي سوى ثعبان الطريق الأسود يتلّوى ولا ينتهي أبدا توهمّت دائماً أنّ الموت يكمن لي وراء كلّ منعطف ولم أكن أدري أبداً أنه يختبئ في جسدي.. رأسي مثقل بالهدير ولا أرى في أحلامي سوى طرقات سود لا تنتهي.. سيارتي صارت رمّة بالية كجسدي ولا يجدي معنا سوى القبر أو وادي الجحيم..) .

صمتت المرأة قليلا ثم تابعت :

-إذا جاء الطبيب سأقول له .. زوجي لا يدعني أغفو لحظة واحدة وحين يغلبني النعاس يصرخ بي استيقظي يا امرأة أرجوك لا أستطيع استقبال الموت وحدي.. شاركتْني بصبر حياتي فشاركيني أرجوك لحظة مماتي.. أرجوك أيها الطبيب هَبْ زوجي جرعة مخدر كي ينام حتى أنام....

صمتت المرأة ثم انحنت على جسد زوجها تمسح دموعه الصامتة. خيم الهدوء قليلا ثم تعالى صوت يصطنع اللامبالاة.

-لا فرق عندي إن دخلت أوّلكم أو آخركم.. فلا أحدَ يستطيع أن يحجبَ عن روحي صورَ أصدقائي الراحلين.. مَنْ مات منهم فقيرا.. مظلوما.. طريدا.. أو غابَ في دياجير الغربة.. أو اختطفه الموت غدرا قبل الأوان.. تأتيني خيالاتهم في صحوي ومنامي.. تبتسم.. تعاتب.. تشفق.. تتألّم.. ترهقني.. أشاروا بالكحول تجرعته وتناسيت أنهم سكنوا دمائي.. سافرت فسبقوني حيث أردت الهروب .. دخلت المعابد لمحتهم في محاريبها.. فتحت الكتب فرأيتهم في حنايا الحروف.. سأنتظر معكم يا رفاق المرضى فربما يستطيع الطبيب –إذا جاء- أن يغيّبهم عن روحي ولو لحظات حتى أستريح أو أنام.

-وأنت؟!؟

صرخ صوت لا أدري من أين جاء .. ودعمه صون ثان وثالث ورابع..

-وأنت ؟! وأنت؟! وأنت ؟!؟! وارتفعت الأصوات وامتدّتْ الأيدي نحوي وبقية العيون إنهم يسألونني .

-اخبرنا ماذا ستقول؟!

-سأقول.. مشكلتي يا دكتور قديمة.. بدأت منذ ولادتي حين سماني أبي شمسَ الدين.. وتساءلت وأنا الرضيع.. كيف سأكون شمساً لهذا الدين؟! وتوالت سنوات عمري يجترّها الزمان أفعل ما لا أريد.. أصادق.. من لا أريد.. أسمع ما لا أريد.. أقول .. وتفاقمت مشكلتي حين استدعاني مديري ذات مناسبة وطلب مني أن أكتب باسمه خطبة نارية أشنّفْ بها أذني المسؤول الذي سيتشرف مع المؤسسة بلمح طلعته البهية.. رفضتُ في البداية بإباء فداهمني زوار الفجر واستضافوني عندهم مدة كانتْ كافيةً لتخطّ يدي –شُلّت من الرسغ- مائةً خطبة عصماء لمائة مناسبة قادمة ووشتّها أيضا بما لم يصدقه الجميع حتى الممدوح من عبارات التفخيم والتعظيم ونسبت إليه أعمالا وانتصارات كانت غائبةً عن باله.... ندمتُ على ما فعلتُ وأقسمت لضميري أن لا أكرر هذا.. ولكن الذي جرى أن جسدي قد بدأ يعصيني .. فقد أصمّم على توبيخ إنسان دنيء ولكن ما إن أقابله حتى ينزلق لساني –قطعه الله من جذوره- ويرغو بعبارات الترحيب والمدح والتفخيم وتصافحه كفي المنافقة بحماس لا أصدّقه.. أرى حلقة الدبكة فيصمّم عقلي بحزم عدم الاشتراك منها ولكن ساقيّ الغدّارتين ما إن تسمعا قرعَ الطبل حتى تركضا بجسدي نحو الدّباكين فينخرط بينهم بحماس رافساً الأرض مع الرافسين.. كلّ شلو في جسدي صار يعصيني

.. لساني يقول ما لا أريد.. يداي تفعلان ما لا أريد عيناي تبصران ما لا أريد.. أذناي تسمعان ما لا أريد.. قلبي يخفق بما لا أريد.. أأنا أنا؟! أم أنا ألف كائن لا أعرفهم؟!..

غرقنا في الصمت.. وعاد الانتظار يلوكنا.. لا شيءَ هنا سوى أنفاس مَنْ تبقّى من الأحياء وخشخشة أوراق رزنامة الممرضة...

وفي زمن لا أدريه أمرت لساني بحزم فتجرأ بسؤال كان عليّ أن ألقيه منذ زمن سحيق..

-متى سيأتي الطبيب؟!

رفعت الممرضة رأسها تاركة تقليب الأوراق الشاحبة ثم دفعت بيدها بابا خلفها فأنَّتْ مفاصله المنسيّة .. رفّ في قلبي بعض الشجاعة.. نهضتُ .. مشيتُ نحو الباب.. تلاحقني العيون الخائفةُ.. دخلتُ غرفة الطبيب .. اقتحمتني العفونة والظلام ورائحة نتنة.. دارت عيناي في ظلام الغرفة.. ومن خلال الضوء المتسلل من غرفة الانتظار رأيت الطبيب.. كان هيكلا من عظام رمادية منخورة يقبع خلفَ مكتبه العفن... يتدّلى من عظام الرقبة سمّاعة صدئة استقرّت فوق القلب اليابس منذ دهور ودهور.. خرجتُ.. أعلنتُ للأحياء الباقين (طبيبكم قد مات منذ قرون.. فابحثوا عن طبيب آخر)

نظروا إلي ذاهلين.. أقسمتُ لهم فابتسموا ساخرين.. توسّلت إليهم أن ينظروا لحظة واحدة حيث نظرت فهزّوا رؤوسهم.. ثم سمروا أبصارهم بين أرجلهم..

ما زلت أصرخ بهم أن ينظروا حيث نظرت.. وما زالوا ينتظرون الطبيب الذي مات منذ دهور .

واحة في ذاكرة محترقة

قال صديقي..
-سأرحل إلى بلاد المال والخضرة والأمان والحسان.
-متى الإياب؟
-وهل يعرف الغريب متى يعود؟!
-للغربة ثمن فادح.
-وللأوطان المحاصرة بالذلّ والجوع ثمن أفدح.
وسافر كل منا في غربته.... وابتلع الزمان من عمرينا ثلاثين عاما على ما يعدّون...
قالوا عاد صديقك نبيل.. وقالوا عاد كسير الروح والجسد.. وقالوا لقد اختار أن يموت على أرض الوطن..
ذهبتُ للقائك.. ناديتُك وروحي تجهش.. ويعتصرُ القلبَ حزن عصي.. تلقّيتني والدموع تائهةٌ في عينيك النادمتين .. ضمّمتني إلى بقايا جسدك.. تلّمست غضون وجهي.. شعري المحترق..
-لقد استرد الزمان ما أعطى.
شممتك.
-أ مازلتَ تحبُّ عطر البنفسج؟
-أنسيتَ أن الفتاتين اللتين أحببناهما معا.. كانتا تحبان عطر البنفسج.
جلستَ قربي .. أشعلنا نار الذكريات وطفقت تحلم .. قلتَ ..

-غداً .. سوف أخرج من باب دارنا القديم في البوّابة .. أمشي بضعَ خطوات .. أتلمّس نقوش بابكم (ما شاء الله – يا فتّاح يا عليم) أتطاول على رؤوس أصابعي .. أطرق بابكم .. دق .. دق.. تفتح لي أختك عائشة.. يشرق لي وجهها القمريّ الصغير وغمازتاها الآسرتين.. يأتيني صوت أمك:

-من على الباب يا عائشة؟

-نبيل يا أمي.

-ادخل يا بني.

أدخلُ.. تتلقّاني أمك وهي تشدُّ الماءَ من البئر ووجهها الخمري ينضحُ عرقاً .. تسألني عن أمي .. تناديك لتخرج معي.. تُعانقني .. تضحك أمك.

-كأنكما لم تريا بعضكما منذ سنوات.

ننطلق نحو باب الدار.

-إلى أين يا عفاريت؟

لا نردّ.. تهزُّ رأسها قائلة (جيل أدرع لا يشبع ولا يسمع) لا نستطيع أن نقول لها أننا ذاهبان إلى سوق القصّابين لجلب قطّتين صغيرتين نتسلّى بهما.. فقد بدأت العطلة الصيفية وتاهت منا القطّتان القديمتان (فلّة وشامة) نمضي عبر الزقاق نحاذر حمار جدك الذي يقف في العرض معاندا ويقطع درب البوابة بجسده الضخم.. نحتال عليه ونعبر كالبرق بسرعة من خلفه.. تكافئنا على جرأتنا شجرةُ الياسمين في أول الزقاق وقد نثرت زهورها على الأرض لكل العابرين.. نتشمّمها قليلا ونجري عبر الحي.. نتوقّف أمام باب الحمّام... نرقبُ النساء القادمات مع بناتهن وهن يحملن الصرر المليئة بالثياب وطعام الحمام، نتجرأ قليلا ونلحق بهن.. نتسلّل .. نخطو بضع خطوات داخل البراني.. نقفُ عند بركة السمك الأحمر .. تأتينا من الجّواني أصواتُ النساء والأطفال وروائح الصابون والبيلون.. ثم نهرب كالأرانب المذعورة حين يهدر كالرعد صوت (المعلمة) .

-ماذا تفعلان هنا يا سعادين؟.. هيا اجلبوا آباءكم أيضاً .

نمضي بين دكاكين الحي.. يغرينا بائع حلوى المسك والعنبر نشتري بنقودك أو نقودي قطعة نقتسمها.. نمضغها على مهل.. يحرقنا العطش .. ندخل دكان الحلاق حيث خابية الماء المليئة دائما.. لا نأبه للزبائن الشيوخ الذين يرمقوننا .. نشرب حتى الارتواء .. يسعل أحدهم ثم يسأل.. كما يسألنا كل مرة ندخل فيها لنشرب..

-أبناء من انتم ؟

أعاند ولا أردّ.. فترد أنت..

-أنا ابن سعيد الحايك.

-إي.. إي.. والدك كان معي في حرب الترعة وأسرَنا الإنجليز .

نخرج قبل أن ينطلق صاحب العكاز الأسير برواية ما جرى.. نتوقّف أمام باب قاعة النشاء .. تخترق أنوفنا رائحةُ حمض نفاذة... تغرينا العتمة المجهولة في الداخل.. نتسلّل.. يتبدّد الظلام عن برك مليئة بالقمح والماء .. تُرعشنا البرودة.. نختلس قطعة نشاء غضّة نتذوقها... تلسع لساننا . نبصقها.. نحثُّ الخطى نحو السوق ترافقنا دكاكين النساجين.. نقف أمام دكان العم الياس.. نصفُ جسده في حفرة النول قدماه تضغطان (الدوس) يده اليسرى تشدُّ الدّفة بقوة نحو حافة النسيج، اليمنى تشدّ (الحدّافة) والعينان تلاحقان المكوك يمينا ويسارا.. يتوقف قليلا.. نتأمل يديه البارعتين وهي تدفع المكابيك الصغيرة بين خيطان السّدى فصنع بخيوطها الذهبية والفضية زنانير جميلة ستزين غدا خصور الصبايا.. نودّعه ثم نجري نحو السوق.. يصادفنا (موسى السكران) وهو عائد إلى الحي يغني مواله الحزين (ياقوت وجهك شبه البدر لالا) نلتصق بتجويف أحد الأبواب يصمت .. يرمقنا بعينيه الداميتين .. يحدّق إلينا.. نتجمّد من الرعب.. ربما تذكّر أننا قد طاردناه بحجارتنا مع بقية أطفال الحيّ منذ أيام ونحن نصيح به يا سكران .. لكنّه يمضي متابعا مواله وهو يترنّح من السكر والهوى.

أصبحتْ غرقان في بحرِ الأسى وحدي
يا جامعَ الشمل يجمعني بكم وحدي
وبحبّكم بس.. لكن غيركم . لا لا

اقتربنا من سوق الحشيش تستقبلنا دقاتُ النجارين وهم يصنعون النمليات والصّرافات وصناديقُ الأعراس ويزخرفونها بألوان زاهية بسيطة.. نمضي... تدغدغ أنوفنا روائح القطايف الساخنة وقد انتشرت فوق أطباق القش.. فنحلم بها أزواجا تضمّ القشدة ويسيل فوقها قطر السكر.. ندخل السوق المسقوف نرنو بدهشة إلى الدكاكين الطافحة بالأثواب والأقمشة. نرقب الصبايا على واجهات الصاغة يتأملن متنهدّات الأساور وخواتم الخطبة .. ننعطف نحو سوق العطّارين تتعلّق عيوننا بالعلب والزجاجات المرصوفة على الرفوف وهي تخفي أسرارا لا يعلمها سوى أولئك الباعة الصامتين.. ندخل سوق الحدادين.. نحاذر الشرر المتطاير من شحذ المناجل والسكاكين. وأخيرا نصل يا صديقي إلى سوق القصّابين لا يعنينا أبدا اللحم العملاق المتدّلي للأبقار والجمال بل نبحثُ بين الأرجل وتحت الطاولات عن القطط الصغيرة .. ألمح إحداها فأتسلل بمكر .. أغافلُ الهرة الصغيرة فأخطفها جاريا بها غير آبه بخرمشاتها وموائها المتواصل.. انتظرك بعيدا فتفعل ما فعلت ونعدو هاربين بالقطّتين .. نضّمهما إلى صدرينا فتأنسان بنا بعد طول مواء.. نصل الحيّ غانمين.. يلتفُّ حولنا أترابنا متوسّلين فنسمح لمن يأتي لهن بالطعام باللمس أو الحمل وسرعان ما ينهال عليها الخبز وقطع الجبن والقريشة.. نرقب القطتين بشغف وهي تأكل.

تناديـنـا أمهاتنـا فيتسلّل كـلّ منـا إلـى داره يخفـي قطّتـه وراء ظهـره.. يفضـحُني المواء.. تصرخ بي أمي .

-من أين أتيت بهذه القطة المسكينة يا عفريت؟

-من السوق.

-ألا تخاف أن يخطفك أحد من أمك في يوم ما؟

أحلـم أن مـاردا مـاكرا قـد خطفنـي مـن الفـراش وطـار بـي بعيـدا يقهقـه. أتوّسل فلا يرد.. يحلّق بـي فـي سماء حمراء.. ثـم يلقينـي فـي صـحراء يأسرها الجفاف والحرّ والغبار والجراد.. أبكـي.. أصـرخ.. تـوقظني أمـي.. تشدّني إلـى صـدرها تقـرأ لـي الفاتحـة والمعـوّذتين.. تسـقيني مـاء مـن طاسـة تزينهـا آيـة الكرسي.. ثم تأمرني أن أعيد القطة الصـغيرة إلـى أمهـا.. أعدها بصـدق ولكنـي أنسى...

صمت صديقي وأطرق ماسحاً دموعه...

كيـف سـأخبره بـأنني ذهبـت مـرارا إلـى حينـا القـديم .. لـم أجـد شـجرة الياسـمين عنـد مـدخل البوابـة.. بـل اخترقـت أنفـي روائـح نتنـة لا أدري مـن أيـن تنبعث.. الحجارة الزرقاء صـارت جدراناً من إسمنت أصم.. وضـاعت الحلقة الحديدية التـي كـان جدي يربط بهـا حمـاره العنيد .. البـاب الخشـبي ذو النقوش ضـاع.. وأختي ذات الوجه القمري المدور.. رحلت مـع زوجهـا إلـى بـلاد النفط وهي أسيرة البيت وستة أولاد وزوج لا يشبع من الحجّ والصوم والصلاة وجمع المال.. الحمّامُ مغلق غـارت مياهـه وانطفـأت نـاره وهجرتـه النسـاء والصـبايا .. الوجوه الوديعة التي ألفناها قطفها الموت بشراهة .. والوجوه التـي تحـدق إلـي الان لا أعرفهـا ولا تعرفنـي.. وقبـل أن أغـادر الحـي .. لحـق بـي طفـل يشـبهك ويشبهني.. قال لي.

-عبثا تبحث عن جنتك يا عم... لقد صارت هشيما.

مازال صديقي يحلم ومازلتُ أبحث بيأس عن جنتـي.. ومازالـت المدينـة تمتلئ برائحة الموت والحرائق.

عند انتصاف الظلام

حين تعانق العقربان في الظلام..
وأعلنت ساعة المدينة العجوز منتصف الليل..
صرخ ملك الخوف:
-ارفعوا الأسوار.. ضاعفوا الحراس.. أطلقوا الكلاب .. فأمواج الخوف التي أطلقتُها في كل اتجاه قد ترتدُّ إلي في هذا الظلام...
قال الطبيب للمريض:
-الساعات القادمة ستقرر مصيرك .. .. فقد تشرق الشمس صباحا على وجهك الشاحب أو قبرك.
قال الطالب وهو يصغي إلى آخر الدّقات:
-رأسي مثقل بالكلمات لم يبق سوى بضع ساعات على امتحان .. سأكرم فيه أو أهان.
قال المتعبون وهم يلقون بأجسادهم المخمورة بالألم.
-لم يبق لنا سوى الأحلام تنأى أبعد أبعد كل ليلة..
قال الحارس وهو يتحسّس بشغف سلاحه:
-سيبقى مولاي ملك الملوك مادام يدفع لي أجري بسخاء ..
قال الشاعر :
-أيتها الكلمات تصيرين في الليل أكثر جمالا وبريقاً.
قال السجين رقم واحد بعد المليون:
-ليت الأرض تقف عن دورانها وعقاربَ الساعات تتجمّد ولا تأتي خيوط النور أبدا.. فأنا أسمع من هنا دقات النجارين في ساحة المدينة وهم ينصبون لي المشنقة التي سأعلق على حبلها عند شروق الشمس.
قال السجين رقم اثنين بعد المليونين:
-أسرعي أيتها الأرض بدورانك وانطلقي كالبرق المذعور يا عقارب الساعات فغدا سأنال حريتي مع نور الصباح.
قال السجين رقم ثلاثة بعد ثلاثة ملايين:
-لا فرق عندي إن أسرعتَ أيها الليل أو تباطأت أو توّقفت.. فقد حُكم علي أن أبقى في هذا السجن إلى الأبد.
قال الليل.. أحلم أن أخيّم في زمن ما على مدينة لا ملك فيها ولا أسوار ولا حراس أو سجون.. ولا يحتضن جناحاي الفاحمين سوى بشر ينامون آمنين..

سباق إلى الهاوية

سئم الملك (بطّاش الأعرج) من الحكم وحده واستعراض حرس الشرف وحده وإصدار أوامر الإعدام والعفو والسجن وحده . وتلقي برقيات التهاني والتعازي والولاء والتأييد وحده.

وتناهى إلى سمعه أنّ التطوير من سمات القرن الجديد فقبل باقتراح جاريته الأخيرة في لحظة نشوة وقرّر بأريحيته تعيين وزير يعينه على حمل أعباء الحكم التي حملها باقتدار وحده ربع قرن مع أنه قادر على حملها ربع قرن آخر وحين سأله ناسخ الأوامر عن صيغة الأمر الخطير لمسابقة اختيار الوزير؟

أجابه (بطاش الأعرج) بثقة وصراحة:
-يستحقُّ وزارتي.. الأكثر إخلاصا وولاء لي!!

الاختبار التمهيدي

استوى (بطّاش) على كرسي العرش وضعاً على هامته التاج المرصّع بألف جوهرة وجوهرة وأخفى قدمه المشوّهةَ تحتَ ثوبه السابغ المحلّى بألف ماسة وماسة وأخذ يمتحن بنفسه منتشيا مئات المتسابقين الذين تقاطروا إلى القصر للفوز برتبة الوزير وكلٌّ يعلن بطريقة رائعة مبدعة عن ولائه للملك.. ورغم الغربلة والتمحيص فقد عجز الملك وهو الذي لا يعجز أبدا عن حسم الأمر واختيار الوزير.. إذ حار بين ثلاثة اظهروا ولاء يبز كل ولاء.. فأمهلهم الملك للامتحان الأخير ثلاثة أيام.

الامتحان الأخير

جلس بطّاش على عرشه ووضع على هامته التاج المرصع بألف لؤلؤة ولؤلؤة وأخفى قدمه الشوهاء تحت ثوبه السابغ المنسوج من خيوط الذهب والبلاتين وأحاط نفسه كما يحتاج كل ملك خالد بالحرّاس والحماة والمسلّين والهمازّين والمتملقين والمّداحين والجّلادين .

أشار بطاش بسبّابته الكريمة فدخل المتسابق الأول يضع على عينيه عصابة سوداء ويتلمّس طريقه بعكاز لا يكاد يثبت على أرض القاعة المرمرية وحين وصل إلى الخط الفاصل بين الراعي والرعية أوقفوه.. فهوى راكعا حتى لامست جبهته رخام الأرض.. وارتفعت مؤخرته تنعكس عليها أضواء النجفة ذات الألف مصباح.. صرخ الملك بصوت كالرعد.

-ما بك أيها المتسابق؟! عهدناك مبصرا منذ أيام فما الذي أصاب عينيك؟

-أتسمح لي بالكلام يا مولاي؟

-أنا الوحيد الذي أسمح.

-نورك المبهر يا مولاي هو الذي أعشى بصري في اللقاء الأول.

-نوري؟!

-نعم يا مولاي فأنت المُبهر المُعشي.. الخاطفُ.. المُعمي.. لقد تجرأتُ في المقابلة الأولى فرفعت بصري لحظة فقط إلى وجهكم الآلاء فارتدّ بصري حسيرا وجرى لي ما ترى.

أسكر الجواب الملك فصرخ بانتشاء:

-أحسنت.. أحسنت.. أعطوه من الذهب ما يعادل وزن عكّازه.

-هل تسمح لي أن أتجرأ بسؤال يا مولاي؟

-اسأل ولكنْ بدون وقاحة أو صراحة.

-الوزارة يا مولاي؟!

-انتظر في الخارج فقد يحالفُك حظي وتكون من الفائزين.

أشار بطاش فدخل المتسابق الثاني يزحف كحلزون سرقوا قوقعته.. وتشبثت يده بقصيدة مدح كتبها على جلد غزال يتيم . وحين وصل المتسابق الزّحاف إلى الحّد الفاصل بين الراعي والرعية قبّل الأرض بوله سبعَ مرات.. ثم سأل متوّسلا:

-أيسمح لي مولاي بالنهوض قليلاً ؟

-لماذا؟

-أريد أن ألقي بين يديكم قصيدتي ولا يجوز أن أذكر اسمكم المعّظم وأنا أزحف على الأرض.

-عذر مقبول .. انهض.

وما كاد الحراس ينهضونه حتى تنحنح وتأرجح وقال:

-اسمح لي يا مولاي أن أنشدك هذه الأبيات المتواضعة، فقد وصلت أخيرا إلى حقيقية مؤكّدة تقول بأن جميع الكلمات في كلّ اللغات تعجز عن الوفاء بمدح إصبع من أصابع قدميك الكريمتين .

هنا سحب بطاش بغضب شديد قدمه العرجاء إلى الخلف وهمّ أن يشير إلى الجلاد فيحذف راس هذا المتسابق الأحمق ولكنه أكره نفسه على الصبر قليلا وكان محقا في ذلك حين أشرع المتسابق قصيدته وتمايل طربا وهو يقول:

مُرْ ما تشاء فتركع الأقدارُ
وابطشْ فأنت القادر القهار
قد طرتَ فوق الكون تسمو محلقا
تهفو إليك الشمسُ والأقمار
هذي الرقاب قد انحنت لك سيدي
أنتَ القوي وسيفك بتّار

هنا طارَتْ فكرة حذف الرأس تماما من رأس الملك.. بل خبط الأرض برجله السليمة وصرخ:

-الله.. الله..

ثم ألقى أمره إلى خازنه بحماس.

-أعطه من خزانتي ديناراً ذهبيا عن كل كلمة تفوّه بها من تلك الدنانير التي حفرت فيها صورتي على الوجهين وإيّاك أن تأكلَ عليه حروف الجر والعطف كما فعلت مع الشاعر الذي هنأني بقصيدة ألفية بمناسبة حلاقة شاربي.. وسأطلب من الصغير والكبير والقاصي والداني أن يحفظ هذه الأبيات ويغرد بها على مسمعي كلما رآني.

-والوزارة يا مولاي؟

-ألا تكفيك الجائزة يا طماع؟!

-المال يذهب يا مولاي.. لكن الوزارة تعني صحبتك ورؤيةَ وجهك الكريم ولا ثروة في الدنيا تعادل ذلك.

-أحسنت.. أحسنت.. انتظرني في الخارج فقد يحالفك الحظ وتكون من الفائزين.

أومأ بطّاش من جديد فدخل المتسابق الثالث معتمدا بصعوبة على عكّازين حديديين وقد اختفت قدمه اليسرى تماماً والتفّ حولَ اسفل الساق رباط تنزّ منه الدماء.. سار المتسابق بصعوبة يطرق الأرض المرمرية بعكازيه الجديدين وحين لامس عكازه الخط الفاصل بين الراعي والرعية توقف وحين اراد الانحناء أعاقه العكازان فرماهما جانبا وانحنى حتى لامس انفه بوز حذائه.. طال انحناؤه ولم تقو قدمه اليمنى على حمل جسده فهوى إلى الأرض .. نظر إليه الملك بطّاش بعين الريبة والحذر.. ثم صرخ غاضبا :

-أين قدمك اليسرى أيُّها المتسابق ؟ جئتنا .. منذ أيام تمشي على قدمين فما الذي جرى لك؟

-أتأذن لي بالكلام يا مولاي ؟

-أنا الذي أأذن .. انهض ..

أنهضه الحراس وأسندوه إلى عكازيه .

-تكلم بحذر وإلا..

-لقد اكتشفت يا مولاي حقيقة مذهلة.

-ماذا اكتشفت ؟

-اكتشفت أنّ قدميّ اليمنى زائدة؟!!

-نعم.. ألست يا مولاي مثالنا في الخَلْق والخُلُق ؟

-بلى أنا المثال المقتدى.

-وهذا ما فعلته أنا يا مولاي فقد بترت عضواً زائداً من جسدي لأقاربك في المثال.. إذ يستحيل يا مولاي أن تكون أنت على خطأ ونحن على صواب !

قهقه الملك منتشيا .. وقهقه بعده جميع الحاضرين حتى الجلاد .. ثم وقف وانحدر يعرج بحماس فاتحا ذراعيه مجتازا الخط الفاصل لأول مرة ثم عانق المتسابق وصرخ مبتهجا:

-مبروك.. أنت من يستحق وزارتي حقا .

صفق الحاضرون وهلّلوا وابتسموا حتى الجّلاد وعزفت فرقةُ القصر موسيقا النصر .. وانطلقت الزغاريد وصدحت الأناشيد .

أشار الملك فهدأ كل شيء.. عاد ثانية إلى عرشه وأوقف وزيره إلى يمينه .. فكّر قليلا ثم قال:

-أعتقد أن وزيرا واحدا لن يكفيني لحكم هذه البلاد ولذلك فإنني آمر بإجراء مسابقة ثانية .

في اليوم التالي شوهدت طوابير من الرجال العرجان يتزاحمون على أبواب القصر .. أما من آسر الاحتفاظ بقدمه وعقله فقد انزوى في الأكواخ والمغاور ورؤوس الجبال .. أو اختفى وراء أسوار المخدرات والجنون.

دجاج الوزير

بـاب البّراكـة الخشـبيةُ يقـرع بشـدة فـي ليلـة كانونيـة تجـاوزت منتصـفها والمكان سفح هضبة في جرود لا زرع فيها ولا ماء..

-استيقظ يا أستاذ.. الأمر خطير.

فتحت الباب فاقتحمتني رياح الشمال تمخر جسدي المرتجف.

-ما الأمر يا إبراهيم ؟

-شاحنة محمّلة بالدجاج الهندي الأبيض معطلةٌ على الطريق العام.

-وما علاقتنا نحن؟

-يقولون إنها لسيادة الوزير يا سيدي.

وقبـل أن يـدرك عقلـي المـرتعش حقيقـة مـا جـرى رنّ الهـاتف بإلحـاح وجاءني صوت مدير المشروع مضطربا مذعورا.

مهندس مروان.. أنت مسؤول منذ هذه اللحظة عن حياة دجاج الوزير .

-أنا مهندس مدني.

-لا تتهرّب من المسؤولية.. الرجال الحقيقيون يظهرون وقت الشدائد.. دجاج الوزير أمانة منذ الان في رقبتك.. واحذر من فطس دجاجة واحدة.

أسرعت مع إبراهيم ننحدر في الطريق العام تسوطنا ريح لئيمة تهب من بين الجبال.

وصلنا الشاحنة كانت تجثم في الظلام بلا حراك كوحش خـائر ويحرسـها أربعة غلاظ شداد.. صاح أقصرهم :

-لماذا تأخرتم؟

وصرخ أضخمهم وهو يغصّ بدموعه:

-أسرعوا.. لن يحتمل دجاج سيدي أكثر من ساعة واحدة في هذا البرد.

ركضـت مـع إبـراهيم إلـى مهجـع العمـال.. كـانوا غـارقين فـي أحلامهـم الصغيرة بعد يوم شاق.. أشعلنا الأنوار.. صرخ إبراهيم:

-هيه.. استيقظوا حالا.. الأمر خطير

-ماذا جرى.. زلزال..؟

-كلا.. كلا..

-حريقة.. سيول..؟

-أخطر.. أخطر..

-لقد وقعت الحرب إذن !

-كلا.. كلا .. شاحنة دجاج الوزير معّطلة على الطريـق العـام.. والـدجاج في خطر ماحق.

ران الصمت.. نظروا إلينا مشدوهين.. لم أسمح لهم بالاستفسار .. انتهزت حيرة عقولهم.. صرخت:

-هيا.. فليحمل كلٌّ منكم دون إبطاء بطانيته وليتبعني لإنقاذ الدجاج .

نهضوا شاتمين.. وسمعتُهم وهم يتبعونني يشتمون.. جميع الكائنات ذات الريش أو الوبر أو الحوافر أو التي تسير أو تزحف أو تطير أو تقفز .

وصلنا السيارة البليدة أمرتهم أن يحمل كل منهم بلطف شديد دجاجتين ويغطيهما ويضمها إلى صدره بحنان وأن يخاطبهما برقة وابتسامة.. وتمّ حمل جميع الدجاج بسلام إلى مهجع العمال ما عدا دجاجتين غادرتين قفزتا من باب السيارة وانتهزتا ظلام الليل وغابتا في بطن الوادي .. ولم نعثر عليهما رغم الحملة المكثفة التي أمر بها المدير عبد الفتاح خوفاً على الدجاجتين الهاربيتين من برد لاسع أو لصّ طامع أو ثعلب مخادع.. وباءت المحاولات بالفشل.

انتشر الدجاج الناجي في أرجاء المهجع وجاءنا صوت المدير هادرا عبر مكبرات الصوت:

-هيا أشعلوا جميع المدافئ المازوتية والكهربائية والغازية. وخلال دقائق عمّ الدفء في أوصال الدجاج وانتشرت الدجاجات في المهجع تتهادى بخيلاء مقوقئة باحثة في بين الممرات والأسرة وتتأمّل بين الحين والآخر الوجوه الكفهرة ببلاهة ووقاحة.

جلستُ مع العمال عابسا أرمق معهم بحقد أزرق لئيم الدجاج وهو يصول ويجول بحرية وقد يقفز ديك وقح فيزرق فوق أحد الأسرة أو الخزائن وكاد أحد العمال أن يتسبّب في فتنة دامية حين رفس دون قصد كما أدّعى دجاجة نقرتْ بنهم إصبع رجله الجريحة فانقضُّ عليه حراس الدجاج وأشبعوه رفسا ثم أمسكوه من خناقه وهدّدوه بنهاية أجله إن أصاب الدجاجة المرفوسة أيّ مكروه .. وبعد مفاوضات مضنية وتوسّلات ووعود وتبويس لحى استطعنا بنجاح إنقاذ ذي الإصبع الجريحة من بين أيدي الحراس بعد أن تعهد الرافس بالاعتذار للدجاجة وتقبيلها والدعاء لها بالسلامة لكن الأذى المميت لم يصب الدجاجة المرفوسة بل أصاب أربع دجاجات كانت ترقد منذ تشرّف المهجع بقدومها قرب الباب مغمضة العيون لاوية رقابها.. مستسلمة للمنية فأسرعنا إليها كالأم الرؤوم وقدمنا لهما ما نستطيع من طعام وشراب ودواء ودفء ودعاء ولكنها أبتْ إلا أن تفطس رغم تهديدات الوزير وتوّسلات المدير ورغم حزني الظاهر عليها فسخر من سخر وشمت من شمت وحين سألني سيادة الوزير شخصياً بالهاتف عن أحوال الدجاجات أسعفتني عيناي بالدموع وأجبته وأنا أشرق بدموعي بأنّ الدجاجات لم تمت بل رفعتْ أرجلها إلى السماء داعية لسيادته بالتوفيق وطول العمر.

فاستشف بذكائه اللامع ما جرى واحتمل الفاجعة بصبر عجيب وشكرني على مشاعري النبيلة وأمرني أن اذبح الدجاجات الثلاث على الطريقة

الإسلامية فله في لحمها كما تبين لي مآرب نافعة، ودامت سهرتنا الدجاجية حتى الصياح حيث وصلت سيارة نقل جديدة ترافقها سيارة ثانية هبط منها عمال وحراس وأطباء وتمّ نقل الدجاجات الناجية بعد تعقيمها مع جثث الفقيدات الثلاث.. ثم غادَرنا رجال الدجاج غير شاكرين:

ملاحظة أولى: لم نستطع العثور على الدجاجتين الهاربتين حتى الان.

ملاحظة ثانية: سُمّي المكان الذي تعطلت فيه السيارة. منعطف دجاج الوزير.

ملاحظة ثالثة: أُهدي لحم الدجاجات الأربع بالعدل اثنتين لجمعية خيرية واثنتين لكلاب الوزير.

ملاحظة رابعة: كانت ليلة الدجاج هي الليلة الوحيدة التي نعمنا فيها بالدفء طوال الشتاء.

ملاحظة خامسة: تمنّى كثير منا أن يغدو دجاجا لدى سيادة الوزير وتحقق الحلم حين نبت للمحظوظين منهم ريش في رؤوسهم وبطونهم وظهورهم وأعجازهم كما صاروا يبيضون ويقفون ويصيحون بمهارة تفوق الدجاج.

جميلة

شمس آذار تغمر بدفئها النقي ساحة حي (الملك الأشرف) في شرقي المدينة.. الوقت ضحى .. وعمال الأنوال اليدوية قد خرجوا من دكاكينهم الباردة إلى الساحة يغسلون أجسادهم المتعبة بنور الشمس.. بعضُهم قد أسند ظهره إلى الجدران الحجرية السوداء وجلس آخرون على كراس واطئة وأحجار.. يتحلّقون حول إبريق الشاي ويديرون السجائر بين أصابعهم بمهارة ثم يبلّلونها وهم يمررونها ذهابا وإيابا تحت شواربهم الكثة المفتولة.. الجميع ينتظرون قدوم (جميلة) إلى الساحة من أحد الأزقة الضيقة المتعرجة.. فجلستهم الصباحية لا تكتمل أبدا إلا بقدوم هذه المرأة التي تجاوزت الخمسين .. نحيلة.. سمراء.. بارزة الوجنات.. غليظة الشفتين.. قلقة النظرات.. نارية المزاج.. ليس فيها من بقايا الأنثى سوى اسمها.. تبزّ الرجال في الجرأة

والصراحة والشتائم الفاضحة .. وهاهم الرجال في الساحة يتوقون للضحك العارم يزيلون به الهم والتعب وصدأ الأيام الكالحة.. ستبرز بعد قليل من المنعطف وهي تشتم كالعادة أحداً ما خلفها ثم تدخل الساحة كالوتر المشدود حتى منتهاه فتفرغ بقية الشتائم على أول من تصادفه كائنا من كان.. ثم تتوقف وتجول ببصرها على رجال الساحة وتهز رأسها ثم تقول:

-آه يا أنذال .. تتركون خالتكم (جميلة) جائعة وأنتم تشربون الشاي ..

وحين يحاول أحدهم الرّد تغرقه بسيل من الشتائم المقذعة فينفجر الضحك المكبوت وتدمع العيون ويسرع بعضهم لإصلاح الأمر فهذا يقدم لها كرسيا وذاك يصب لها الشاي وآخر نصف رغيفه الساخن.. ويكتمل الصلح المؤقت بسيجارة تضعها خلف أذنها فتجلس وتبلّل قطع الخبز بالشاي وتستمتع بامتصاصها ومضغها في فمها الأدرد.. ثم تطرح سؤالها المنتظر وهي عابسة:

-أين المغضوب إسماعيل؟

يتبادل الجميع نظراتهم بحذر.. وينقذ أحدهم الموقف بكذبة مفضوحة.

-ابنك إسماعيل ذهب إلى المصبغة يلاحق صبغ الغزل .

-تكذبون يا أولاد الحرام.. أنا أعرف أنه مختبئ مني هنا في مكان ما.

ثم تمدّ جميلة لسانا طويلا تشقّق واصفر:

-انظروا.. انظروا.. شهر كامل لم أذق فيه قطرة حليب أو دمعة لبن.. آه لو وجدت ابن الكلب هذا لقّطعته بأسناني.

كان إسماعيل أكثر رجال الحي بؤسا وهزالا يعمل أياما وراء نوله وسرعان ما يصيبه التعب والملل فيهجر النول لينتقل من مهنة إلى أخرى فتارة نراه عاملا في فرن أو يدفع عربة خضار أو يساوم على خروف صغير أو دجاجة ولكنه يعود دائما مخفقا إلى حفرة نوله من جديد .. وحين يحلّ الشتاء تتوّرم مفاصله فيغيّبه المرض عن الدكان معظم أيام الشتاء..

تنتهي جميلة من طعامها فيتوق الرجال لاستثارة البركان الكامن أمامهم .. فيطلق أحدهم أول سهام الشيطان :

-سمعتُ أحدهم يؤكّد بأنه رأى زوجك أبا إسماعيل في البادية .

تتواثب نظرات الشرر والغضب في العينين الصغيرتين القلقتين.. لكنّ جميلة تكتم حنقها.. ويصرّ الرجل على إطلاق البركان المتوثّب..

-ومعه زوجة بدوية حسناء.

تنتفض جميلة كالملدوغة وتنهال بالشتائم على زوجها وعلى الحاضرين وكلّ الرجال الأوباش.. وتهمّ بالذهاب وهي تبربر.. فيسرعون لتهدئتها ويكذّبون ناقل الخبر ويلومونه . ويقول أحدهم مبتسماً .

-لو دار أبو إسماعيل الدنيا بأركانها الأربعة فلن يجد أحلى من جميلة.

-سيعود إليك حتما.

-ما الحبُّ إلا للحبيب الأول.

يعلو فرح طفولي وجه جميلة فتجلس ساهمة ولكن سؤالا ماكرا يطلق أحدهم .

فيعود الوجوم إلى وجهها من جديد.

-أتدرون لماذا هرب أبو إسماعيل إلى البادية؟

وتنصت جميلة بريبة إلى الأجوبة الماكرة.

-من الفقر..

-من عسكرية تركيا..

-من المصيبة التي عنده في البيت.

ويهرب صاحبُ الجواب الأخير وهو يستعد لوابل الشتائم على رأسه.. ولكنّ جميلة تكبح نفسها بصعوبة.

أبو إسماعيل لم يهرب مني يا مسطول.. انظر.. جمال ونسب وحسب ولسان كالشهد.

-لماذا هرب إذن؟

-ألم تسمع ما فعله بنا الأتراك.. لقد أخذوا المال والرجال والأرزاق ولم يتركوا للناس شيئا.. وأقسم أبو إسماعيل بأنه لن يسلم رأسه لهؤلاء الظالمين .. فضرب إلى البادية ..

وأيدّ آخر كلامها متصنعا الجد.

-لولا أبو إسماعيل لمات معظم أهل الحي من الجوع.. ذكرى هؤلاء الجاحدين يا جميلة ذكريهم.

تمعن جميلة النظر إليه ورغم أنها تتبين طيف السخرية يلوح على الوجوه لكنها تتابع بزهو:

-كان أبو إسماعيل يرسل لي من هناك الخراف الصغيرة والجديان فاذبحها وأسد بها الأفواه الجائعة..

يقاطعها أحدهم .

-وجلود الكلاب التي وجدوها في مغارة الوادي!!

فتضجُّ الساحة بالضحك الصاخب وتدمع العيون ويرتفع سعال المدخنين وهم يجدلون سجائرهم من جديد.. ولا يرضى أحدهم أن يُبقي البركان خامدا.

-أنا رأيت بعيني اللتين سيأكلهما الدود.. أكثر من مائة جلد كلب.

فتصرخ جميلة محتجة:

-مائة جلد كلب يا ابن الكلب!.. إنها لا تزيد عن خمسين كلبا.

-أحقا كنت تطعمين الناس لحم الكلاب يا جميلة؟

-لم يبق شيء لم يأكلوه.. حشائش البراري.. أوراق الأشجار .. الجيف.. روث البهائم...

ويقسم أحدهم بأن لحم الكلاب لذيذ ومغذ ولولاه لمات في صغره من الجوع.

فتزهو جميلة وتقسم بأنها فعلت ذلك رغما عنها بعد أن ساق الأتراك الرجال إلى الحرب وصادروا كلّ ما يُؤكل ولم يبق في الحي سوى النساء والأطفال وأصحاب الجاه.. الطرقات تمتلئ كل صباح بجثث الجائعين والكلاب.. العسكر يتجولون في الشوارع يصادرون كل شيء نافع.

-وكيف تمسكين بالكلاب؟

-أغري الكلب بلحم كلب فيتبعني حيث أريد.

-وهل صدّق الناس بأنها لحوم خراف وجديان؟

-الجوع كافر والجائع لا يسألك عما تطعمه ولو كان لحم أخيه.

هاهو الوقت يمضي.. جلسة الضحى كادتْ تخبو دوَن أن تظهر جميلة.. النفوس قلقة والعيون مغلقة على الزقاق الذي ستأتي منه.. وحين استقرّ الرأي على إرسال أحد الأولاد ليقرع بابها المتهالك برزت جميلة تخطو بصمت مطرقة محنية الظهر دون غطاء يستر شعرها الأشيب .

أيقين الجميع بأن شيئا خطيرا ما قد جرى.. دعوها بحّب للجلوس فما زال معهم خبز وشاي وتبغ .. لم تأبه.. سألوها عن سرّ صمتها وحزنها .. لم تجب تابعت سيرها تعبر الساحة ذاهلة تلاحقها العيون بدهشة.

صاح أحدهم ممازحا:

-انتبهي يا جميلة.. ابنك إسماعيل يضع عينه على أرملة غنية .

توقفت جميلة ورنت إلى محدثها تغالب دموعا نراها لأول مرة .

-إسماعيل ميت في البيت.. اذهبوا وادفنوه!!

تابعت سيرها تجر جسدا شاخ فجأة وانحنى تحت ثقل حزن عميق.

هذيان

نصحتُك يا صديقي ألاّ تقوم بهذه التجربة الخطرة.
ابتسمت..
-أريد أن أسمع نبض المدينة.
-المدينة التي نحبها قد رحلت بلا إياب.
أصررتَ على تجربتك.. وجرى ما جرى وها أنتَ الان تدفعُ ثمنا باهظاً لما سمعت .
يمنّ عليك الموتُ ببضعة أيام.. حين دخلتُ غرفتك كنتَ ذاهل الروح ذابل الجسد.. ثمّة كائن خرافي لئيم ينسلُ منك نسمة الحياة ودفء التفاؤل.. رمقتني.. رفّ طيف ألم على محياك.. مددتَ يدك تحت الوسادة وقدّمت لي ذاك الشريط.. وها أنا أصغى إليه.. دَمْ.. دَمْ.. دَمْ.. إيقاع عميق كحفارة تدق بعناد في جوف جبل صخري لا نخرته الكهوف.. ثم يأتي صوتك المطفأ تسأل زوجتك السؤال الذي اعتدته منذ عشرات السنين :
-أتريدين شيئا؟.. صمتْ.. يبدو أنها قد ملّت الجواب فأعطتك ورقة دوّنت فيها ما تريد .
سمعتُ صفق الباب.. خطواتكِ وأنت.. تهبط الدرج.. يرتفع صوت جارين لك يتشاجران.
-ابنك يعاكس ابني يا حاج..!
-بل ابنتك هي التي تعاكس ابني!!
-ابنتي أشرف من الشرف.
-بل ابني هو الأشرف من الشرف.
ألقيتَ السلام لم يرّد!.. وتابعا معركة الشرف.. بحماس.. يعترض طريقك الآن الجار الثالث.
-مجرور البناء مسدود يا جار.
-ندعو سكان البناء إلى اجتماع.
-لن يأتوا.
-اجمع إذن منهم نقودا للإصلاح.
-لن يدفعوا.
-ما الحل في رأيك؟
-الأفضل أن يغرقوا في نتنهم!
دَمْ.. دَمْ.. دَمْ.. الطرق الضعيف يعلو من جديد.. الدَمدَمات تثير حيرتي.. أتابع الإصغاء .. أنت الان في الشارع.. أبواق السيارات تشقُّ الفضاء.. تتصالبُ .. تفترق.. تمخرُ الروح.. سألتك مرة.
-لماذا نعشقُ الضجيج؟
-كي نستر به عجزنا وصمتنا الذليل.

تقف الآن على الرصيف مع الواقفين.. تنتظر.. ترغو الفضاء .. ثرثرة المنتظرين.. (لم تتوقف سيارة واحدة منذ نصف ساعة.. تأتي محشوة بالناس.. المدينة ضاقت بما فيها .. لم تعد تعرف وجها واحدا.. الإسمنت يأكل الأخضر والأخضر.. رزقت بمولود.. صبي أم بنت؟.. كلّ شيء يبعثه الله جيد.. يأتي الولد ويأتي رزقه معه.. أبحث عن علبة حليب.. رفض ابني ثدي أمه.. مَنْ له عمر لا تقتله الشدة ..) صوت ميكرو يتوقف.. تلاحقه الأقدام.. أسمع لهاثك وأنت تطارده.. ربحت معركة الصعود.. جلستَ .. تهوي فوق رأسك أغنية يتقيؤها مذياع السائق (فَصِليني.. فَصِليني.. فَصِليني.. فَصِليني.. فَصِليني..) يسحقُ روحَك التكرار الغبي .. رأسُك بين حجري الرحى.. تصرخ متوسلا إلى السائق:

-أرجوك اخفض صوت المذياع يا أخ.

يرد الأخ السائق بنبرة مَنْ أدمنَ الشجار والشتائم.

-المزعوج يأخذ تاكسي.. مفهوم.

تغصُّ بالإهانة.. يأتيك صوتُ لا تدري إنْ كان جادا أم هازلا:

-تراث يا أستاذ .. تراث !.. يجب أن نعضّ عليه بالأنياب.. أخ.. أخ..

يتابع الميكرو قفزه ويرفع أخوك السائق صوتَ المطرب الذي يتوسّل الوصال من حبيبته كشحاذ لحوح وقح.. صوت واهن لحرمة (امرأة) يأتي من الخلف .

-توقّف يا بني.

لم يتوقف ابنها.. كان يتمايلُ مكررا ما يردّده المطرب المتسول (فَصِليني.. فَصِليني.. فَصِليني..) ثارت نخوة بعضُ الركاب لنجدة الحرمة فاستجمع أحدهم شجاعته وصرخ:

-أنزل الحرمة يا معلم.

أدار المعلم نحو الركاب وجهه الملاكي وبعق:

-يا عُميان.. لا أستطيع الوقوف هنا.. ألا ترون رجال الشرطة..؟ نهبوا مني نصف الغّلة حتى الآن .

دم.. دم.. دم.. القبضة العنيدة تدق الآن في أرض صماء.. يرتفع صوت واهن يسأل :

-من يدخن؟

يهمس صوت خجول التدخين ممنوع بأمر الوزير.. مرحبا وزير.. معي نقص في التروية.. أرجوكم.. اطلبوا من السائق أن يتوقف.. اطلب أنت .. افتحوا النوافذ.. لا تفتح.. جاء صوت يطلب من السائق أن يقف .. نزلت .. أين يدفعون فاتورة الهاتف؟ قف آخر الدور.. لن يأتي دورك قبل ساعة.. لماذا لا يفتحون الكوة الثانية؟ الموظفة في إجازة .. وقتنا ثمين.. ضحك.. قف بالدور يا سيد.. وجد السيد أخيرا مَنْ يفرغ فيه غضبه.. أتكلمني أنا..؟! أنا..! صمتٌ ذليل

.. تقّدم يا أخ.. بقي لي ست ليرات،، دائما تأكلون حقوق الناس.. سأتوقّف عن القبض .. تعالوا غدا.. نرجوك يا أستاذ وراءنا أشغال.. قفوا بالدور.. شعب متخلف لا تنفع مع غير العصا.. نعم فاتورتك ثلاثين ألفا.. كنت مسافر.. ادفع ثم اعترض.. سبع مخابرات إلى الفاتيكان.. كيف.. لا أعرف هناك البابا ولا الماما.. أرقام ساخنة .. ماذا تقصد.. اسأل أولادك.. صغار؟ يعرفون أكثر منك .. آخر زمان..

دَمْ.. دَمْ.. دَمْ.. تغادر المكان .. تدخل السوق .. تزدحم في الشريط أصواتُ باعة الخضار والجوارب والعلوك والأمشاط والنّظارات والمحارم والأدعية ومصاصات المتة والأكياس والصيصان وتلاة الموالد والمطربين.. تنسحب الأصوات حين دخلت عيادة الطبيب.. سألتكَ الممرضة وهي تفرقع بالعلك:

-هل أحضرت الصور والتحاليل؟

يحظى تسعة مرضى بالدخول قبلك إلى الطبيب.. يعلو أنين قربك.. ما بك يا أخ؟.. أنين.

همس أحد في أذنك:

-سرطان كبد..

صمت مقبرة مهجورة.. أنا أعاني من ارتفاع ضغط في الدم.. مرض العصر.. الأخ.. ارتفاع في السكر سببه الزعل حتما.. ارم وراء ظهرك.. الأخ.. انسداد ثلاثة شرايين.. ستنفجر مثانيّ يا آنسة.. اصبر أنت رجل.. الأخ.. التهاب شديد.. جراثيم عصية لم ينفع معها أي دواء.. هذه والدتي نأتي بها إلى الطبيب خوفا من ألسنة الناس.. اللهم ارحمنا إذا يئس الطبيب .. جاء دورك .. أدخل.. دخلت .. اخلع ثيابك .. خلعت .. دم.. دم.. دم.. يضطرب صوت الدمدمات .. يحاورك الطبيب بصوت ملّ مداواة الأجساد العليلة.

-أعد استعمال الدواء مرة أخرى

-سئمت منه دكتور.

-ليس هناك علاج آخر.

-بماذا تنصحني؟

-لا تفكّر كثيرا.. وارم وراء ظهرك..

ضحكت بمرارة .. خرجت.. عادت الأصوات تزحم الشريط من جديد.. أبواق السيارات.. أصوات المؤذنين.. باعة الغاز.. دخلت المقهى.. ألقيت السلام.. ردّ بعضهم.. سحبت كرسيا.. جلست.. لم يعيروك اهتماما.. اعتادوك واعتدهم ..يتابعون قذف النرد وهو يتدحرج بقوة على خشب الطاولة.. خبط أحجار .. العب .. يتدحرج النرد والعيون خلفه من جديد.. العب.. المعركة حامية الوطيس.. صاح أحدهم ناصحا:

-احذروا .. النرد خوّان.. إنه مصنوع من عظم كلب.

ترتفع صيحات قربك.. لماذا لم ترم بنت الدينارِي يا بهيم.. البهيم لا يرد.. الذنب يركبه إذن في قضية بنت الديناري .. اخلط الأوراق جيدا.. محتال ابن محتال.. ترك أحدهم متابعة معركة النرد وسألك أخيرا.

-ماذا قال الطبيب؟

-أعد الدواء.

دقت الساعة معلنة الثانية عشرة.. سعلَ زبون كان يعبّ من نارجيلة ثم صاح:

-اسمعنا نشرة الأخبار يا بشير.

رفع بشير صوت التلفاز ليسمع شارب النارجيلة آخر الأخبار .

العدو الصهيوني يرتكب مجزرة في غزة.. شيش بيش.. اغتيال أحد قادة الانتفاضة في الخليلي.. دوشيش.. أين عيونك؟.. العب.. العدو المجرم يجرف الأرض الزراعية في رفح.. أربعة معسل.. شارون يهدد بمسح العواصم العربية.. إكي بير .. خسرت.. قلت لكم النرد عظم كلب.. نابلس تحت الحصار .. للشهر الرابع.. الخامس.. بشير.. يا بشير.. اقلب القناة.. عميت قلوبنا بهذه الأخبار.. ابحث عن أغنية لنانسي.. نهضتَ.. لم يأبهوا لخروجك كما يأبهوا لدخولك.. تسرع كمن يهرب من سعير.. أين المفر؟.. الأفعوان داخل قفصك يتدلّى فوق رأسك.. دَمْ.. دَمْ.. دَمْ.. تركض.. تركض.. يعلو لهاثك.. وأخيرا ينفجر صدرك بآه تحمل كلّ الأوجاع.. تهاويت على الرصيف.. تعلو الهمهمات والتساؤلات.. حي.. ميت.. حي.. حي.. ميت.. حي.. ميت.. عواء سيارة الإسعاف كان آخر ما التقطه شريط مسجلتك.

قبل أن أودعك الوداع الأخير.. سألتني بإلحاح عن سر هذه الدمدمات .. أجبتك وأنا أرنو إلى عينيك العذبتين المعذبتين.

-ألم تعرْفها بعد يا صديقي.. إنها دقات قلبك.. أنسيتَ أنك كنت تضع آلة التسجيل الصغيرة فوق القلب تماما.

(خاتمة)

حين أروي للناس قصة الشريط القاتل لا يصدقني أحد.. لا ألومهم لأني حين أصغي إلى الشريط الآن .. لا أسمع سوى دقات قلب يتوق كما أتوق إلى نسمة هواء.

حوار مع جنين مشاكس

تأخّر موعدُ ولادة (أمينة) أسبوعين كاملين على غير عادتها في ولاداتها العشرة السابقة.. فشكت الأمر إلى زوجها (نجيب) فحمل عصاه التي برتها مؤخرات أولاده العجفاء وصرخ في الجنين مهددا:
- هيا اهبط بسرعة يا فصعون.. لقد حان موعد نزولك .
- لن أنزل.
- لماذا يا ولد؟
- لديك عشرة أولاد من بنين وبنات فلماذا جئت بي أيضا إلى هذه الدنيا؟
- كانت غلطة من أمّك الغبية.. نسيتْ شرب حبوب المنع فعلقت وعلقنا.
- إذن.. أنا غلطة.
- لا تزعل.. السابع والثامن والتاسع والعاشر من إخوتك كانوا أغلاطا
- أنتم تغلطون ونحن ندفع الثمن.
- اخرس.
- خرست.. ولكن ماذا ستسميني؟
-عبد الغني.
- لا أحبُّ هذا الاسم.. سأختار لنفسي أسما آخر.
- اخرس.. لقد قررنا اسمك وانتهى الأمر.
- ولكن هذا ظلم.. ألا يحقُّ لي أن أختار اسمي الذي سيلتصق بي حتى شاهدة القبر ؟!
- كلا.
- أين سأنام؟

- سوف تتقاسم الفراش مع أخوتك العشرة.
- وماذا سألبس؟
- ثياب أخيك العاشر قد صغرت عليه.
- وماذا سآكل؟
- ثديا أمّك جاهزان.
- وإذا جفَّ حليبهما.
- زاحم اخوتك على صحن الطعام ....والأكل لمن سبق.
- لن أنزل أبداً من هذا البطن حتى تحققوا لي مطالبي.
- وما هي يا فصيح؟
- أريد غرفة خاصة لي.. وسريرا مريحا.. وخزانةً ملأى بالألعاب والثياب.. وأريد دراجة.. وحاسوبا.. وعندما أكبر أريد دخول روضة تعلم الإنكليزية بلكنة أمريكية.
- أخبرني.. كيف عرفت كل هذه الأشياء؟
- أتحسبني أعمى.. لقد كنت أشاهد التلفاز مع أمي عشر ساعات في اليوم.
- لن أستطيع تحقيق مطلب واحد.
- لماذا؟
- هذا فوق طاقتي يا مشاكس.
- هه.. طاقتك تتجلّى في إنجابنا فقط.
- اخرس يا وقح.. يا عديم التربية.. يا عاق.. أقسم بأني سأخرجك من بطن أمك رغما عنك.

بعد ساعة كانت (أمينة) في سيارة إسعاف تشقُّ طريقها وسط حي مكتظّ بالأولاد والدجاج والكلاب والغبار والقطط والنفايات والمتسكعين.
شقَّ الطبيب بطنَ أمينة وانتزع منه عبد الغني ثم رماه إلى ممرضة عابسة لفّته بخرق قديمة سترت من قبل إخوته العشرة.
لم يبك عبد الغني أبدا كما يبكي الأولاد.. بل ابتسم ساخرا حين رأى والده نجيب يلوب من شخص إلى آخر يستجدي أجرة السيارة التي ستعيدهم إلى بيت فاض سكانه فرداً آخر هذا اليوم.

تجار الدم

مع خيوط الشمس الأولى رصف القائد عبد الجبار عساكره صفّاً صفّاً في مواجهة أعدائهم الكفرة وأمر بأن ترفع فوق الأسنّة والخوذ المحشوة بالرؤوس .. الأعلام والرايات التي طرزت عليها عبارة (الله أكبر). ومع شروق الشمس أيضا صفّ القائد عبد القهار جنوده في مواجهة أعدائهم الكفرة وأمر بأن ترفرف فوق أسنة الرماح والخوذ التي حشرت فيها الرؤوس اليانعة الألوية والرايات التي نقش عليها بالخط الكوفي الجميل (نصر من الله وفتح قريب).

وحين وَمَضَتْ الشمس فوق الدروع وصفحات السيوف والخوذ والرايات وأسنة العوالي وفارت القلوب بحمض الحقد والكراهية ألقى عبد الجبار في عسكره خطبة بشّرهم فيها بالنصر على أعدائهم الكفرة وغنائم لم ترها عين أو تسمع بها أذن .

كما ألقى بعد الجبار في جنوده خطبة بشّرهم فيها بالظفر على أعدائهم الملحدين الضالين ووعدهم بأن تغدو نساء الأعداء جواري وأولادهم غلمانا.

ومع صيحة (الله أكبر) التي انطلقت من شدقي عبد الجبار وعبد القهار اندفع الجيشان بحقد عضال إلى لحم بعضهم يقطعون ويغرزون ويبترون ويبعجون حتى هوى رأس الشمس على نطع الغروب فانتزعوا أسلحتهم من لحم أعدائهم تاركين وليمة دسمة لوحوش الفلاة . وبرك دماء يرتعش فوق صفحتها القانية خيال هلال مبهوت.

صرخ عبد الجبار بفلول عساكره العائدين :

-بارك الله فيكم لقد روّيتم عطشي وعطش شفرات السيوف والأسنة من دماء الكافرين.. انتصرنا والحمد لله.

وصاح عبد القهار ببقايا جنوده الآفلين :

-الحمد لله بوركتم أيها المجاهدون لقد سقيتم حتى الثمالة .. سيوفكم ورماحكم الظامئة من دماء الكفرة المارقين.. البشرى .. قتلانا في الجنة حتما .. وقتلاهم في النار .. وما النصر إلا من عند الله.

في ذاك الوقت كان الله يرافق أمّاً رثة الثياب بلا مأوى تقف بذل مستجدية حفنة قمح كي تطعم أطفالها الأيتام أمام خيمة يرفرف فوقها علم الصليب الأحمر.

آخر الحزن

اسكتي يا امرأة وليدك –لعن الله ساعة مولده- ما كان ينقصني إلاّه.

كان هذا صراخ الأب الفحل لجاريته فأسرعت الزوجة تسدّ فم عبد الله بمصّاصة خادعة ما زالت عليها آثار أسنان إخوته العشرة. فصمتَ عبد الله ينساب الحزن إلى قلبه الصغير.

-اخرس وإيّاك أن تناقشني بعد الآن بمسألة واحدة.

صاح المعلم وهو ينهال على جسد عبد الله الصغير بعصا حفر عليها –العصا من الجنة- فغاص الحزن في قلب عبد الله.

-اصمت حالا وكفّ عن هذا الجدال.. ألم تدر بأن الجدال يقود إلى العقل والعقل يقود إلى الشك والشك يقود إلى الكفر.. فاحذر من غضبي وغضب الله يا عبد الله.

قالها الشيخ وهو يتمتم مستغفرا لعبد الله ما اقترف.. فصمت وغاص الحزن عميقا .. عميقا.

-ابلع لسانك واحذر أن تفتح فاك ثانية بأمور لا تعنيك وإلا فتحنا قبرك.

هكذا بعق المحقق في وجه عبد الله الذي تمزّق لحمه. فصمت عبد الله وتغلغل الحزن إلى أقصى مداه.

قلبُ عبد الله الآن بيضة حقد تومض لهيبا لا يستطيع احتماله. انتزع عبد الله ما كان قلبا وألقاه في ساحة المدينة فدوى انفجار هائل فأصغى الجميع الآن إليه بخوف راغمين.

اختفاء مدير هام

التحضير لقدوم المدير

في حوالي الثامنة والنصف وقف المستخدم أبو العز بزهو أمام باب المدير ونسل من جيبه المفتاح الخاص بالغرفة. وقف برهة ينظر باختيال يميناً ويساراً ليثير حسد المارة والمراجعين. ثم ولج الغرفة وأغلق الباب وانهمك في تهيئة مكتب المدير مسح الأرض الرخامية بسائل معطر وتلاها بمسح الطاولة متوقّفاً كعادته عند صورة المدير الأثيرة تحت البلّور وهو يشد قامته مائلا برأسه نحو الوزير وكأنه يقول: (انظروا جيدا أنا الشخص الثالث إلى يسار الوزير ولن يطول الأمر حتى أكون ملاصقاً له تماماً).

ويترك أبو العز الصورة ليبدأ مسح الزجاج فوق حكمة رائعة يتغنى المدير بها ويذكرها دائما في خطبه ولضيوفه وموظفيه المقصرين (الرجال العظماء بالأفعال لا بالأقوال) ويعرج بعدها أبو العز على تلميع الهواتف الثلاثية: الأحمر.. والأخضر.. والأسود. ثم يرتّب المقلمة ممسكا بالقلم الأخضر مقلّدا في الهواء التوقيع المشتهى.. وينهي عمله بقلب أوراق الرزنامة على يوم جديد يضيف فيه موظفو الدائرة وعمالها يوما آخر من السعادة إلى عمرهم تحت رعاية هذا المدير.

على باب المدير

في التاسعة وخمس دقائق يخرج أبو العز من الغرفة التي أصبحت مستعدة لاستقبال المدير فيحتشد حوله وتحته وفوقه أصحاب الحاجات حاملين أوراقاً توّاقة إلى توقيع المدير يسألونه متوسّلين عن موعد للتشريف فيشيح أبو العز بوجهه عنهم ويمضي غير آبه بهم يدورون حوله ضارعين يشده بعضهم بلطف من ثيابه.. وقبل أن يتوارى في إحدى الغرف يردّ على المتوسّلين بقرف:

-انقلعوا من خلقتي.. ما بعرف.

التشريف

في حوالي الحادية عشرة توقفت نملة المدير أمام باب المديرية وما إن وطئ راكب النملة بحذائه (الكلارك) أرض الرصيف حتى تراكض نحوه ثلاثة.. واحد لفتح باب النملة والثاني لحمل الحقيبة ذات الأسرار والثالث لشّق

الطريق.. فخطا المدير نحور الباب كأزهى غراب يثقله شعور بالمسؤولية في هذه الأزمنة الغبية.. التي حظيت بوجوده ليحلّ أعقد المشاكل ويقهر أصعب المسائل فيمضي إلى مكتبه غير آبه بالابتسامات والانحناءات ومشغولا عن التحيات.

الاستعداد لخدمة العباد

في الحادية عشرة وخمس دقائق كان المدير يجلس وراء مكتبه الفخم ويتمعن صورته مع الوزير فتشحنه بالثقة والتفاؤل رانيا إلى الحكمة مستمدا منها النهج والسبيل ثم أخرج مسبحته الكهرمان وبدأ الطقطقة بها.. وقبل أن تكمل دورتها الثالثة كان فنجان القهوة قد انتصب عن يمينه تفوح منها رائحة الهال فاخرج باكتئاب السيجار ولم يبخل عليه أبو العز بالنار.. فمج مجة من الدخان وأتبعها برشفة من الفنجان.. نظر إلى ساعته ونقر بضع كبسات على الهاتف الأخضر فجاءه صوت الخادمة السيرلانكية فسألها عن المدام فأجابته بأنها ما تزال تسبح في الأحلام.

ما يجري على الباب من قبل أصحاب الحاجات

في تمام الحادية عشرة والنصف تناهى إلى آذان المدير أصوات صخب وضجيج وشتائم وعجيج وتبعها خبط ولبط على الباب فاستفهم المدير بدهشة عن الأمر فأجابه أبو العز بأن زحام المراجعين عند الباب قد اشتد وذيل طابورهم قد امتد فأمره بتهدئة الأحوال فخرج أبو العز كالفارس المقدام وصرخ في الجموع صرخة تنخلع لها الضلوع كما نعت الواقفين بقلة الذوق والصغارة وعدم الدخول في حظيرة الحضارة ولم يرد عليه أحد من أصحاب الحاجات كأنهم دجاجات.

وبعد أن ساد الهدوء والصمت بعق بهم قائلا:

-هاتوا معاملاتكم.

وغمز غمزة معناها أن من أراد التوقيع في الحال فعليه أن يزين معاملته ببعض المال.

(إرسال السيارات في أصعب المهمات)

في الثانية عشرة والربع رقص الهاتف الأخضر على مكتب المدير فعرف أنها المدام.. لقد استيقظت إذن وشربت قهوتها وأصبحت على خير ما يرام.. وانهمرت الأوامر.. السيارة البيضاء لأخذ شيرين إلى المسبح.. والسوداء لتأخذ نضال إلى الجامعة.. والحمراء لتأخذ الخادمة مع الطباخ إلى السوق لجلب الحاجات .. والجردونية لتأخذ المدام إلى الأصبوحة في الميرديان.

وما هي إلا دقائق حتى انطلقت السيارات في أصعب المهمات.

استقبال الرجال الكرام بما يليق من احترام

في الثانية عشرة والنصف وشوش الهاتف الأسود على مكتب المدير يعلمه عن وصول ابن عمه مختار قرية (أم الحصا) وما إن اقتحم المختار الغرفة حتى هبت رائحة القرية –كما أقسم المدير- بدجاجها وحميرها وبقرها وكلابها وغبارها.. فاشتد الضم والعناق وتبويس الشوارب والثياب.. وبعد السؤال عن الأولاد وأبناء العم والأحوال وشرب المتة والشاي قام ابن العم بتسليم طلبات أبناء القرية من توظيف ونقل وتعيين وإعفاء وتسفير.. وبعد أن استلم المدير بفرح الطلبات همس في أذن ابن العم قبل الانصراف :

-هل هذه الطلبات سخرة أم فيها مال وأجرة؟

فأجاب المختار بكلّ صراحة:

-حققْ لأصحاب الطلبات المراد ولن ينسوك يا ابن الأجواد.

فابتسم المدير ابتسامة العارف الخبير وهمس في أذن المختار قبل أن يغادر:

-أخبر أصحاب الحاجات بأن الدفع سلف وإلا أصاب طلباتهم التمزيق والتلف.

فخرج المختار مثقلا بالهم يلعن هذه الدنيا التي أصبح فيها الدولار أخا والجنيه ابن العم.

في الواحدة تماما كان المدير الهمام يستقبل بالضمّ والأحضان الحاج (عثمان) رجل الأعمال وصاحب البر والإحسان وكان عتاب المدير للحاج حارا جدا فهو لم يره أو يسمع صوته أو خبرا عنه منذ عدة أيام.. وكاد المدير أن يبكي ويمدّ يد الإحسان جين أخبره الحاج عثمان بأن المشروع الأخير خيب الآمال في الربح القليل الحلال.. وقبيل انتهاء جلسة الصفاء أخرج الحاج من حقيبته عدة أضابير وبضع شيكات وقعها المدير بكل سرور بسرعة برق مذعور.

الاختفاء

في الواحدة والنصف وخمس دقائق سمع أبو العز وهو واقف على الباب يكشُّ الملحاحين من أصحاب الحاجات أصوات الهواتف ترن فوق مكتب المدير –على غير عادتها- دون مجيب فساوره القلق ودخل الغرفة ليستطلع الأمر فلم تحظ عيناه برؤية المدير وتوهّم أن الأمر غياب بسيط لهنيهات..

لكن غياب المدير قد طال ومازال مختفيا حتى الآن.

نظريات في اختفاء المدير

-المستخدم أبو العز أخبر لجنة التحقيق وهو يشرق بدموعه بأنه سمع المدير المفقود يخبر أحدهم ولا يدري من هو بأن لديه اجتماعاً هاماً في الوزارة.

-سائق النملة الخاصة بتنقلات المدير أقسم بأنه قد أوصله بالنملة إلى مدخل مقصف السمكة اللعوب تلبية لدعوة على الغداء تلقاها من الحاج عثمان.
-الحاج عثمان أنكر هذه الدعوة وأنكر معرفته بهذا المقصف الذي يقدم المنكرات.
-عامل الأسانسير الخاص بالمدير أكد بأنه قد هبط بالمدير حوالي الواحدة والنصف نحو الطابق الأرضي ووّدعه بالابتسامات وهو يغيب في أحد الممرات.
-عامل التنظيفات الخاص بدورة مياه المدير أكد بأنه قد شاهد بأم عينيه المدير في الواحدة والنصف يدخل مسرعاً إلى المرحاض المرخم.. ولم يره بعد ذل

الضغط على وريد نازف

ما قالته الزوجة

لا ... زوجي ليس مجنوناً يا دكتور .. إنه يفرق عقولاً على أهل البلدة كلّها .. تعال واسمعه حين يجادل و حين يناقش .. لقد استطاع أن يقنع أهل البناء الذي نسكنه كلّهم بعدم رمي القمامة إلاّ في الوقت المحدد . كتب بيده أوراقاً تقول : (النظافة من الإيمان .. فأروني إيمانكم) و حين اتّهمه أحدهم بأنه يشرب الخمرة أفحمه بقوله :

(المشكلة ليست فيما يدخل جوفَ الإنسان بل فيما يخرج منه).. و رفضَ مرة أن يذهب لتهنئة مديره على عودته من الحج غانماً سالماً . و حين لامه زملاؤه على ذلك حرصاً عليه من غضب المدير أجابهم :

- لن يخدعني هذا المدير المنافق بتلك الحجة التي أنفق عليها من المال الحرام الذي يشفطه من الشركة .

تسألني .. لماذا أتيت به إليك .. لقد زادت عصبية زوجي كثيراً في الأيام الأخيرة .. إلى أيّ حد .. ألا يكفي أنه قذف التلفاز من النافذة و لولا لطف الله لهرس جارنا الحاج فوزي الذي كان ذاهباً لصلاة الصبح في المسجد .. أعراض المرض قديمة يا دكتور فما يكاد زوجي يخرج عدة ساعات خارج المنزل حتى يعود إليه مشدود الروح و الجسد كنابض مضغوط حتى منتهاه فأقابله بالصمت و أتحاشى الرّد على استفزازاته التي تنهال علي كالإبر. وما إن أتفوه بكلمة أو كلمتين حتى تنهال فوقي رشّاشات من الشتائم و يطير صحن

هنا أو كأس هناك .. و تنقلب صينية و تتمزق صحف أو تتحطم سماعة هاتف .. فأهرب إلى ملجأ آمن من غضبه و لا يخرجني منه بعد أن يهدأ إلاّ نداؤه لي بصوت نادم منكسر :

- سعاد .. سعاد .. سامحني .. لعن الله ساعة الشيطان ..!

سأروي لك يا دكتور تفاصيل ما حدث ليلة التلفاز .. عاد مساء تلك الليلة منهكاً رمى بجسده على الديوان، لمحت في عيونه عدم الرغبة في الشجار .. سألته بحذر

- هل أضع لك طعام العشاء ؟

هز رأسه نافياً .. نظر إلى التلفاز رآني أتابع الحلقة الثمانين بعد المائة للمسلسل المكسيكي .. رمقني بشذر ثم قال

- أيتها المرأة الجاهلة متى سترتفعين عن هذه السخافات ؟

و لا أدري من أين أتتني جرأة مفاجئة فصحت و أنا أقذف بين يديه جهاز التحكم :

(اجلس في البيت مثلي عدة شهور حبيس هذه الجدران و سوف ترى ما يحدث لك..) ثم تواريت في غرفة النوم أبكي بصمت عمرنا الذي ينزف .. بكيتُ .. بكيتُ حتى أغرقني النوم.. صحوت فجأة مذعورة على صوت انفجار و صراخ . نظرت من النافذة فرأيت حطام التلفاز متناثراً في الشارع قريباً من حاوية القمامة و جارنا الحاج فوزي يدعو على زوجي بعدم التوفيق و النحس و قطع الرزق و خراب البيت .. فيرد عليه زوجي ساخراً

- لا تعذب حالك ياحاج .. دعواتك مستجابة سلفاً .

ما رأيك يا دكتور .. أتعتقد أن زوجي قد وصل حقاً إلى حافة الجنون ... ؟!.

ما قاله المريض (قاذف التلفاز) !

أتسألني إن كنت مجنوناً أم لا يا دكتور ... لا أدري ... ففي عالم يهوي منزلقاً على رأسه إلى هاوية مجهولة يستحيل عليك أن تعرف مالك العقل من فاقده .. لكني أعتقد أنه ما زال فيّ بقية من عقل يقبض عليها رأسي كجمرة متوّهجة فأنا ما زلت أحفظ اسمي و اسم أبي و أمي و أخوتي و الأنبياء و وطني و أسماء الشهداء و لون الدم و وجوه أصدقائي الراحلين و حبيبتي الأولى ... و لكنّي أعترف لك بأنّ جنياً صعلوكاً يلاحقني و يلكزني كي اسخر و أشتم و أضرب و أصرخ .. أعصيه أحياناً و أطيعه حيناً آخر .. تسألني لماذا حطمت التلفاز ؟! أنا في دهشة من سؤالك .. انظر .. لقد استسلم الناس جميعاً لهذا الشيطان الماكر .. و سمّر عيونهم بوهجه الخادع .. حين يأكلون و حين يشربون و يسهرون و يعشقون و يضاجعون .. لقد صار ابني يناديه يا بابا و مديري في الشركة يدخله إلى مرحاضه الواسع و حلاّقي يحدق إليه وهو يصلح لي شاربي و جزار الحي يقطع اللحم و هو مشدوه به .. أتصدق بأن سائق

سرفيس ركبت معه كان يقود وهو يوّزع بصره الأحول بين التلفاز الذي نصبه أمامه و الطريق المحفر المزدحم .. و بأن أسرتي التي أخذتها مرة إلى شاطئ البحر شاهدت شاشة التلفاز أكثر من زرقة البحر ... لقد صار طعاماً للعقول الزائغة و سراباً للأرواح و سلوةً كاذبة للمصابين .. وقتك ثمين يا دكتور .. أنا آسف! سأروي لك ما جرى . عدت ذاك المساء مكسور الروح والجسد.. ما أسهل تعب الجسد .. ساعة .. أو ساعتين تغفو فيهما فتصحو قوياً نشيطاً .. أما الروح المرضوضة فمن يداويها ؟! .. ما أصعبَ أن يتسّرب ماء العمر منك في شروخ الأيام اليابسة .. و أنت تقول ما يريدون تسمع ما يريدون .. تحزن متى يريدون .. تبكي .. تصمت . تضحك.. تتنفس .. تختنق .. تقاتل . تصالح .. الروح طائر عصبوا رجله بخيط رفيع من فولاذ لئيم يلهون به كما يشاءون .. حين دخلتُ البيت كانت عيون زوجتي تتابع على شاشة التلفاز بلهفة مصير البطل الوسيم الذي فقد كالعادة ذاكرته .. سألتني دون أن تزيحَ بصرها .. إن كنت أريدُ العشاء فرفضت .. ألقيتُ بهذا الطين المتعب فوق الديوان .. وخزني الجنّي المارق كي أسخر من زوجتي .. فرمتْ بغضب جهاز التحكم من يدها و ألقتْ جملةً غاضبة أعجبتني

(اجلس في البيت مثلي عدةَ شهور حبيس هذه الجدران و سوف ترى ما يحدث لك) جهاز التحكم الآن في يدي . العالم بين أصابعي .. همس الجني بأذني ساخراً .. (و ما أدراك أنك الآن كالحشرة بين أصابعهم) مَنْ هم ؟! تعالتْ قهقهاته ثم توارى .. أضغط . مباراة حامية الوطيس و القطيع البشري يصرخ .. يعوي .. يصفر .. يقفز .. يشتم .. يرقص .. أضغط .. راقصة تتلوى توقظ عواء الشهوات المكبوتة .. أضغط .. شيخ مهيب ناري الذقن يثبت لي بعد أدلة و براهين أن أبانا كان كاسياً في الجنة و لم يكن عارياً كما يزعم السفهاء و المنحرفون .. أضغط .. شهداء على أكفّ الرجال الهادرين تلفّ أجسادهم المدماة أعلام خضراء .. أضغط .. ملك عربي مشلول يكاد ينهض – يا للمعجزة – لمصافحة وزير حرب أعظم دول هذا الزمان . أضغط .. أكوام بشر من جلد و عظم تمسك أيديهم العجفاء بصحون فارغة و هم ينتظرون .. أضغط .. جنازات .. جنازات .. رصاص .. شظايا و مدن عربية مستباحة لا تنام .. أضغط.. صحراء عربية و جنود عرب و مناورات مشتركة مع جنود العم جورج و العم سام .. أضغط.. مسؤول عربي أدمن الهزائم و حمل الأوسمة و الكذب .. يخطب في حشد و يتباكى من أجل الوحدة العربية وفلسطين.. أضغط .. جثث و أشلاء و صرخات الأيتام و الثكالى تشقُّ فضاءاً مأسوراً بالذلّ و الصمت وطائرات العم دبل يو بوش .. أضغط .. رجل عجوز ذو لحية مخضبة يرد على سائلة حول الحسد و الجن و العين و العفاريت .. أضغط .. ملك عربي يهوى الصيد يكمن خلف سيارة أمريكية مصفحة و يطلق النار على زرافة بلهاء و ضعوها على بعد أمتار .. فيعلو التصفيق الحار مشيداً

بمهارته .. أضغط .. أجساد الشهداء التي تغصّ بالرصاص و الشظايا .. تدير وجوهها عنا معاتبةً .. تزحم الشوارع تتقدم.. تتقدم.. تدق الشاشة بأقدامها العارية المدمّاة تدق .. تدق .. تسيل خيوط الدماء .. تلتفُّ حول أغصان الروح و تعتصر شغاف القلب .. أضغط .. عجوز أعمى يرّد على سائل حائر حول جواز الوضوء من نهر بال فيه أحدهم .. أضغط .. جنود يهوذا يمتطون قبة المسجد الأقصى ويسكبون فوقه بولهم والويسكي و عصير الكوكاكولا .. أضغط .. رقصة الختام .. أغنية .. ابتسامة لطيفة .. وتصبحون على ...

و قبل أن تصدح الأناشيد يا دكتور و ترفرف الأعلام و ترقص النسور و النجوم و خيالات الزعماء و الملوك .. اختطفت يداي التلفاز و رمته من النافذة .

رأي الطبيب

حالة هذا المريض قد تكّررت هذا الأسبوع و الظاهرة خطيرة تستحقّ تشكيل لجنة من الأطباء و العلماء و رجال السياسة لوضع الحلول الناجعة لهذا الوباء .

ملاحظة

نفيدكم بأن اللجنة التي اقترح الطبيب تشكيلها للنظر في مرض قذف التلفازات لم تقدم أي حل لأنها لم تُشكّل في الأساس كما أن نقابة الأطباء قد طلبت من الطبيب سحب اقتراحه بعد أن ازدحمت عيادات الأطباء بمرضى رماة التلفاز .

رأي المسؤولين !

قذف التلفاز ظاهرة غير حضارية و بدعة سيئة تضرّ بسمعة الوطن و اقتصاده و لذلك فقد قررنا :

أولاً : معاقبة رماة التلفاز بوضعهم في غرف نُصبت فيها أجهزة عالية لا تطولها أيديهم الآثمة و لا يعرض عليهم فيها سوى نشرات الأخبار المحلية و خطب الزعماء و الملوك و أشعار الإشادة و المديح و الحلقة الأضعف وستار أكاديمي.

ثانياً : الطلب من الشركات الصانعة أن تراعي مرضى هذه الظاهرة كي تقوم بتصنيع أجهزة غير قابلة للإغلاق إلا من قبلنا أو التحطيم ولو ألقيت من أعلى ناطحات السحاب .. .

باهت الصدى.

العمامة بيضاء بيضاء.. الوجه ناحل شاحب .. والذقن شعثاء .

كان الرجل الناحل يقف أمام كهف حجري دامس متنكبا بندقية روسية ويهدد بلغة عربية فصيحة الغرب الكافر بالويل والثبور وعظائم الأمور ونار خالدة ..

فجأة اختل البثّ في القمر الصناعي الذي أرسله الغرب الكافر بصاروخ كافر فاختفى الرجل ذو الوجه الشاحب النحيل واللحية الشعثاء واختفى الكهف ولم يبق سوى باهت الصدى.

سلاسل

يهدّدني ربَّ العمل بالحسم والفصل والطرد.
يهددني مَنْ يدوس القانون بأصدقائه من رجال السلطة.
يهددنني شيخي بنار جهنم.
يهددني ولدي بانتزاع مفتاح البيت.
تهددني زوجتي دائما بنفاد المؤونة.
تهددني السماء القاحلة بوابل الغبار والحصى والجراد.
تهددني شراييني بقوافل من الجلطات.
يهددني جسدي بالشيخوخة قبل الأوان.
يهددني هذا الصمت عن الدماء بالجنون.
يهددني عقلي بالغياب.
لهذا سلبوا كل شيء أمام عيوني.. ثم صرخوا :
-قم ودافع يا جبان عن الوطن..!

قصر المرايا

تشمّم الملك (مسمار التابوت) رائحة مؤامرة سيقوم بها كبير الوزراء فقطع رأسه ورؤوس جميع الوزراء ونوابهم.

وتناهى إلى سمعه المرهف همسٌ عن مؤامرة سيقوم بها قائد الجيش فطارتْ هاماتُ جميع القواد.

وانخلع قلبه يوما حين لمح ابنه الأكبر ينظر بشوق إلى كرسيّ العرش فاجتث رأسه ورؤوس جميع أبنائه وأقاربه وزوجاتهم ومن في بطونهم.

ورأى ليلة في حلمه أن إحدى جواريه تنشد أبيات غزل فاستيقظ مذعورا وأطاح برؤوس الجواري والمحظيات والزوجات ومن نظم بيت غزل أو تفّوه به.

أخيرا.. لم يبق في المملكة سواه وكي لا يشعر بالوحشة نصب على جدران القصر وسقوفه وأرضه مئات المرايا فرأى آلاف الأصدقاء المخلصين يشاركونه ضحكه كلما ضحك وابتسامته إذا ابتسم وعبوسه إذا عبس.

دواء مر

أجبروه في الصغر –كما يقول- على تقبيل يد زعيم حارته الجرباء فصار فمه جرحا متقيحا...

وأقسم لي بأنه قد جرب كل دواء فقد غسل فمه بالماء والزيت والعطر ومرّغه بالرمل والتراب والملح والجمر لكّن فمه ظل جرحاً متقيحاً ينْزّ صديداً وكلاماً كفقاعات الصابون.

يا للغرابة إنه يتناسى أن هناك دواء شافيا بسيطا لا يكلفه سوى أن يقول (لا) مرة واحدة في اليوم على الأقل.

الفهرس

عنوان القصة الصفحة

- صراخ ٢
- يوم بكى الشيطان ٣
- حوارية السيد والعبد ٦
- السير بأدب ٨
- في الرأس شيء مفقود ٩
- حلم كبير ١٣
- حصار ١٦
- في انتظار الطبيب ١٨
- واحة في ذاكرة محترقة ٢٢
- عند انتصاف الظلام ٢٦
- سباق إلى الهاوية ٢٨
- دجاج الوزير ٣٢
- جميلة ٣٥
- هذيان ٣٩
- حوار مع جنين مشاكس ٤٤
- تجار الدم ٤٦
- آخرالحزن ٤٨
- اختفاء مدير هام ٤٩
- الضغط على وريد نازف ٥٣
- باهت الصدى ٥٧
- سلاسل ٥٨
- قصر المرايا ٥٩
- دواءمر ٦٠